ملامح بارزة في شخصية
الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

محمد الرابع الحسني الندوي

الناشر

المجمع الإسلامي العلمي، لكناؤ (الهند)

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم سلسلة المطبوعات: ٣٩٠

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ ٢٠١٨م

اسم الكتاب : ملامح بارزة في شخصية
الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

مؤلف الكتاب: الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي

جمع وتعريب : محمد وثيق الندوي

الصفحات: ٧١

النسخ: ١١٠٠

المطبع: ورك لائن بريس، لكناؤ (الهند)

ثمن النسخة: ٥٠ روبية هندية

الناشر

المجمع الإسلامي العلمي

ص، ب، ١١٩، ندوة العماء، لكناؤ (الهند)

الهاتف: ٠٥٢٢٢٧٤١٥٣٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا
مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ
قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ
وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً

(الأحزاب:٢٣)

قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين". البيهقي

"لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون".

البخاري ومسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين خاتم النبيين سيدنا محمد بن عبد الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين وبعد.

كانت حياة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي وأفكاره موضع بحث ودراسة لدى الكُتَّاب الذين طالعوا كتبه أو أتيحت لهم فرصة للقائه والتحدُّث إليه، وتعرَّفوا على أفكاره، فعرضوا شخصيته في ضوء المطالعة أو اللقاء، فاشتملت كتاباتهم عنه على انعكاسات المطالعة واللقاء.

ولا شك أن هذا اللقاء والمطالعة، أو ما كتب عنه لا يقدم صورة كاملة لحياته وأفكاره، وشخصيته، وأكثر في ذلك ما له صلة بحياته الخارجية.

لقد كان الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي ابن شقيقة الشيخ الندوي من الذين تربَّوا منذ الصغر تحت رعايته، وكان ألصق به في الحياة العائلية وفي خارجها، ثم رافقه في الرحلات، وشهد اللقاءات مع الشخصيات العلمية والدينية والسياسية العالمية، وفي داخل الهند، ثم كان معيناً ومساعداً له في [illegible] ندوة العلماء،

وترجماناً له، وقد قدم الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي في هذه الرسالة المختصرة ملامح شخصيته التي تشمل جوانب الحياة الكاملة، فهي في الواقع موجز سيرة الشيخ الندوي وأفكاره ومزاياه الشخصية والطبيعية، كتبها على أساس معاينته ومشاهدته، فهي رسالة ملخصة لحياته وفكره وخلقه وتعامله مع الناس من سائر الطبقات من الملوك إلى عامة الناس، ولكنها تُبرز جوانب من حياته لا تبرُز بمجرد المطالعة واللقاءات العابرة، فليس ذلك مما سمع أو قرأ، بل كتبها على بصر وبصيرة وإليه أشار الشاعر:

و تطـــابق الخـــبر في عينـــاك والخـــبر
وصـــدق الســـمع في أوصـــافك البصـــر

وإن هذه الرسالة تشتمل على أربع مقالات كتبت في مناسبات مختلفة، وقدمت في الندوات المنعقدة حول حياة الشيخ الندوي وأعماله الدعوية ومآثره العلمية ومواقفه نحو القضايا، فنظراً إلى أهميتها وقيمتها جمعت في رسالة مستقلة لتعم الفائدة، ويطلع الجيل الجديد على منهج الشيخ الندوي في حلّ القضايا وهو منهج الوسطية والاعتدال، والله ولي التوفيق.

محمد واضح رشيد الحسني الندوي
١/رجب/١٤٣٩هـ
٢٠/مارس/٢٠١٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الرسالة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم الأنبياء سيدنا محمد بن عبد الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين وبعد.

لقد ظهرت في التاريخ الإسلامي الطويل شخصيات عظيمة جداً، ينطبق عليها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"[1] وتسمى هذه الشخصيات بالمجددين، وقد أفرد سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي كتاباً في مجلدات عديدة استعرض فيها هذه الشخصيات كنماذج ممتازة لحركة الدعوة والإصلاح والتجديد في الإسلام عبر العصور والأمصار، وقد ظهرت من أعمال سماحته أنه كان أيضاً من قبيل هذه الشخصيات.

فقد أدى سماحته دوراً عظيماً بارزاً، في نصرة الدين في مجال الفكر الإسلامي والاتجاهات الإسلامية التي ساورها تأثير من الخارج، وأصابتها لوثة الانحراف في أشكال مختلفة، وبذلك أدى سماحته مسئولية ذات قيمة في مجال الدفاع عن الدين الحنيف

---

[1] أبو داؤد رقم الحديث: ٤٢٩١.

وتصحيح مساره في جوانب مختلفة من أحوال الحياة واتجاهات الفكر، بتأثير تيارات جديدة بمقتضى تطور الحياة بناءاً على طبيعة الإنسان بمرور الزمان، ولقد أدى سماحته هذ العمل بخطبه ومحاضراته وبحوثه العلمية ومؤلفاته الدسمة القيمة، وباتصالاته برجال القيادة والحكم، كما أنه أدى هذا العمل بكريم أخلاقه وحسن سلوكه مع الناس، وبذلك كله عُدَّ علماً من أعلام المسلمين الذين قاموا بأداء عمل عظيم في مجال دعم الفكر الإسلامي، وتصحيح المفاهيم المنحرفة للمسلمين في مجالات الفكر والاجتماع والسلوك، واتجاهات الحياة المختلفة ومجالات شتى للحياة، فكان بذلك مفكراً إسلامياً عظيماً، وداعية إسلامياً، وعالماً ومرشداً ربانياً، وخبيراً تعليمياً، وقائداً حكيماً، وخطيباً بارعاً، وكاتباً أديباً، فلقد امتاز بنبوغه في هذه المجالات المختلفة التي قلما تجتمع البراعة فيها في شخصية واحدة.

وقد ألف عدد من الباحثين والمؤلفين كتباً ودراسات حول جوانب مختلفة لشخصيته الجامعة على أساس مطالعة كتبه أو معرفته للأحواله، وإني أيضاً قد ألفت كتاباً حول سيرته ومآثره العلمية وجهوده الدعوية ومكانته الدينية ومنهجه في الدعوة والإصلاح بالأردية[1] على أساس ما عاينته وشاهدته وجربته منذ الصغر إلى

---

[1] نقل هذا الكتاب إلى العربية الأخ الفاضل حسيب الرحمن مجيب الندوي باسم "الشيخ العلامة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي: شخصية صنعت التاريخ، في ضوء المشاهدات [illegible] الشخصية" وقام بطبعه دار الغرب الإسلامي، تونس، عام ٢٠١٢م.

وفاته، وكتبت عدة مقالات وبحوث قدمت في الندوات والمؤتمرات حول حياة الشيخ الندوي في الهند وخارجها، وبعض منها نشرت في المجلات والصحف، وكانت مغمورة في الملفات والأراشيف، فأخرجها الأخ العزيز محمد وثيق الندوي (محاضر بكلية اللغة العربية وآدابها بدار العلوم لندوة العلماء) وجمعها في رسالة مستقلة، وإن كانت هذه المقالات قد كتبت في مناسبات مختلفة تختلف في الزمان والمكان، لكن تجمعها غاية واحدة، وهي إبراز خصائصه الممتازة ومجالات عمله الرئيسية وهي أولاً: تربية النفوس على الأخلاق الكريمة، وتحسين مستوى التعليم في المسلمين وتوسعته، وثانياً: نصرة القضايا الإسلامية في بلده العلماني وفي الدول الإسلامية، وثالثاً: تقريب الفئات المبتعدة عن السيرة الصالحة، والمعادية للإسلام والمسلمين إلى فهم الإسلام، ووضع المسلمين الأصيل.

أرجو الله تعالى أن يجعل هذه الرسالة مقبولة عنده ومفيدة لقرائها الراغبين في التعرُّف على شخصية الشيخ الندوي في هذا العصر الذي يشعر فيه أصحاب الهمّ الإسلامي والفكر الإسلامي السليم بمسيس الحاجة إلى اختيار منهجه في الدعوة والإصلاح والتربية الإسلامية وأسلوبه لحلّ القضايا والمشاكل، والله ولي التوفيق.

٢/رجب/ ١٤٣٩هـ — محمد الرابع الحسني الندوي

٢٠١٨/٣/٢١م — الرئيس العام لندوة العلماء لكناؤ

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي

مكانته العلمية والدينية ومنهجه التربوي الوسيط[١]

عالمية شخصيته وشمولها:

كان سماحة العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي – رحمه الله تعالى – شخصية عالمية، وجامعة وشاملة في القرن العشرين، فإنه أدرك بفراسته المؤمنة ما كانت تواجهه الأمة الإسلامية في عهده من مشاكل وتحديات وأخطار، وفهم طبيعة العصر، وخطورة القضايا، والتحديات والمؤامرات ضد الإسلام والمسلمين، فقاد الأمة قيادة حكيمة ورشيدة، وبذل الجهود لتوجيه الأمة إلى الوجهة الصحيحة والاتجاه البناء، ونصح القادة والزعماء، ونبَّه المسلمين على الأخطار والمكايد، وأرشدهم فيما يهمُّهم إرشاداً

---

[١] قدم هذا المقال في الندوة العالمية التي عقدتها رابطة الأدب الإسلامي العالمية (فرع كرناتكا) حول "حياة سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي وجهوده الدعوية والدينية والإصلاحية" في أكاديمية الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي ببتكل، وذلك في الفترة ما بين ٤- ٦/ فبراير ٢٠١٨م، وكان المقال بالأردية وتلقى القبول والتقدير البالغ من الحضور، فنظراً إلى شمولها واحتوائها لشخصية الشيخ الندوي الجامعة، نقله إلى العربية الأستاذ محمد وثيق الندوي لإفادة القراء العرب بتوجيه من صاحب المقال فضيلة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي، وقد تناول فضيلته الترجمة العربية بالتحسين والتهذيب والتنقيح والزيادة، فجاءت كالأصل.

حكيماً، كان أبوه العلامة السيد عبد الحي الحسني مؤرخاً عظيماً، ومحدثاً كبيراً، ويحمل ذوقاً عالياً للأدب، فورث الشيخ الندوي من أبيه الذوق العلمي والأسلوب الأدبي، وكان قد قرأ على كبار أساتذة عصره المعروفين، فربّاه أخوه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني تربية دقيقة ورصينة، واستفاد من عمه الأستاذ طلحة الحسني، والعلامة السيد سليمان الندوي الذي كان جامعاً بين العلم والدين والأدب والدعوة، كما استفاد من كبار الشخصيات العلمية وأصحاب العلم والدعوة والأدب والفكر والهمّ الإسلامي، والعاطفة الدينية، والغيرة الإسلامية، فنال الرسوخ والنبوغ في علوم الدين، والتبحُّر والتعمُّق في الفكر والأدب، فجاءت شخصيته جامعة لأشتات الفضائل والمحاسن، قد نال الصلاحية الراسخة في علوم الدين من العلامة المحدث الشيخ حيدر حسن خان الطوكي، وشيخ الإسلام السيد حسين أحمد المدني، والشيخ أحمد علي اللاهوري، ونهل من منهلهم، ونبغ في العلوم العربية لدى أديب العربية العلامة الشيخ خليل بن محمد بن الحسن الأنصاري اليماني، والعلامة الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي، وحظي بعنايتهما المركزة.

معرفته الدقيقة وتجربته الواسعة

وبعد التخرج من مرحلة الدراسة المنتظمة جعل القيام بالدعوة مجال عمله في ضوء القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ودرس التاريخ دراسة عميقة متأنية وأمينة، كما درس الأفكار والنظريات الغربية وأصحابها، وتاريخ الحضارة الغربية والفكر الغربي دراسة

نقدية، واطلع على تاريخ أوربا اطلاعاً واسعاً، بجنب اطلاعه العميق على تاريخ الفكر الإسلامي ومعرفته الدقيقة الواسعة لحركة الدعوة والإصلاح في الإسلام وأعلامها، ودرس الحركات العلمية والفكرية التي نشأت في القرون الأولى في التاريخ الإسلامي إلى عصره، بعمق ووعي وفهم صحيح، كما شاهد الحركات الدينية والمنظمات الملية الإسلامية التي قامت في عصره، وجرَّبها، وشارك في بعضها عملياً، وفي بعضها توجيهاً ونصحاً، وتعاون معها، وشاهد الحركات التي ساهمت في تحرير البلد من الاستعمار الإنجليزي كجمعية علماء الهند، ودرس أفكار قادتها العلماء، وأهدافها ومنهج عملها، فأبدى تقديره لها، وجماعة الدعوة والتبليغ وجربها، وكانت له صلة عميقة بمؤسسها الشيخ الداعية محمد إلياس الكاندهلوي وأبدى تقديره لعمله الدعوي، وشارك فيها عملياً.

استفادته من كبار المربين

ونال الشيخ الندوي التربية الروحية والتزكية من كبار المربين والعلماء الربانيين والصلحاء المتقين في عصره، وحضر مجالسهم وحظي بصحبتهم، أمثال شيخ الإسلام حسين أحمد المدني، والشيخ أحمد علي اللاهوري، وشيخه الشيخ غلام محمد الدينفوري، والعلامة أشرف علي التهانوي، والشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، والمحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، والشيخ عبد الشكور الفاروقي، والشيخ الشاه وصي الله الفتحبوري، والشيخ محمد يعقوب المجددي، والشيخ هارون العسل الحجار (من

سوريا) وخاصة كانت له صلة استرشاد وبيعة بالعالم الرباني الشيخ أحمد علي اللاهوري والشيخ المربي الجليل عبد القادر الرائبوري واستفاد من صحبتهما ومجالسهما وقد أجازه كلاهما في الطريقة .

دور أمّه الحنون في تكوين شخصيته

وقد نال الشيخ الندوي في مرحلة الدراسة والتحصيل عناية وعطف الأساتذة والمربين الذين كان تأثيرهم كبيراً في تكوين شخصيته الفكرية والعلمية والسلوكية، فجعل شخصيته شخصية متزنة، وأصبحت سمته الغالبة الصبر والحلم والأناة والحكمة وضبط النفس وكظم الغيظ والعفو والردّ بالإحسان إلى من أساء إليه، وكانت أمه الحنون قد اعتنت في صغره أمُّه الحنون بتربيته على التحلي بمكارم الأخلاق والخلق الإسلامي القويم، وغرست فيه العدل وحب الخير والنصح، وقد سهرت الليالي في تربيته وبناء شخصيته، فأحسنت تربيته وتعليمه بأسلوب حكيم منعه من الانسياق وراء ما تهواه نفسه ونفوس أقرانه، فمثلاً كان الاتجاه السائد في معاصريه في الأسرة وأقاربه إلى اختيار العلم والأدب بتأثير الاتجاه الغربي السائد والطبيعة العلمية المعاصرة، وكان قد اتجه إلى تعلُّم الإنجليزية بمنهجها السائد في عصره، فحالت أمه دون ذلك، وكونته تكويناً صالحاً وحكيماً جعل الروح الدينية هي الغالبة في هذا الاتجاه.

في تربية أخيه الأكبر

وتوفي والده في صغره فنشأ وتعلم تحت إشراف أخيه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني الذي كان يجمع بين العلوم العصرية

والعلوم الدينية ويحمل الفكر الإسلامي السليم والاتجاه الديني الصالح، فقام بتربية ورعاية أخيه الصغير خير قيام حتي لم يشعر بيتمه، ورباه بغاية من الشفقة والحنان، وأشرف عليه وأرشده إلى الاستفادة من كبار الشخصيات الدينية والعلمية والاستقاء من ينابيعهم، وبذلك هيأ لأخيه الصغير جواً صالحاً ساعد في تكوينه العلمي والفكري و بناء شخصيته الجامعة، كما توفرت له الفرص للاستفادة من أبرز شيوخ عصره وعلمائه، فنشأت فيه بفضل هذه التربية الحكيمة الصلاحيات والقدرات المتنوعة كما جمع بين الأصالة والمعاصرة جمعاً متزناً من الناحية العلمية والفكرية، ونشأت فيه نزعة الاستفادة من كبار الشيوخ الثقات الراسخين، ودامت هذه العاطفة إلى آخر عهده بالدنيا، كان الشيخ الندوي يزور كبار الشخصيات العلمية والدينية في عصره كتلميذ ويلتقى بهم ويصاحبهم كمستفيد، ينهل من منهلهم العلمي والروحي، ويترسم خطاهم، ويعرض عليهم رأيه وفكره وموقفه بأدب واحترام وبأسلوب ملؤه الثقة والفهم السديد.

ذوقه الأدبي والقرآني

وقد حصل الشيخ الندوي على ذوق عال للأدب والتاريخ بمصاحبة بعض أقاربه الذين كان لهم شغف زائد بالأدب والتاريخ، فنال البراعة والنبوغ في الأدب باللغتين الأردية والعربية وخاصة نبغ في اللغة العربية، كما تهيأت له الفرصة للاستفادة من المنهل القرآني ومعرفة بلاغة القرآن وأسراره وحكمه ومعانيه وحقائقه، وقوة بيانه

وتأثير أسلوبه المعجز، وتخصَّص في هذا المجال، فحصل له الذوق الصحيح لفهم القرآن وروحه، ويتجلى هذا الذوق القرآني في جميع كتاباته وخطاباته الدعوية والإصلاحية.

دراسته العميقة للتاريخ

وأما التاريخ فقد درس الشيخ الندوي تاريخ البلاد وبخاصة الدول العربية والإسلامية، وتاريخ الأمم وخاصة تاريخ التقدم والرقي، والإدبار والهبوط في حياة الأمم وبخاصة الأمة الإسلامية دينياً وحضارياً، دراسة نقدية وتحليلية، واستنتج منه استنتاجات نادرة فريدة، كما درس تاريخ الدول الأوربية دراسة نقدية من الناحية السياسية والحضارية.

لم تكن دراسة الشيخ الندوي للتاريخ دراسة بسيطة عابرة، بل كانت دراسته دراسة واعية ومتقنة؛ اطلع اطلاعاً واسعاً وعميقاً على الجوانب الدعوية والفكرية لوقائع التاريخ، واستخرج منها دروساً وعبراً، واستنتج منها استنتاجات لم يعتن بها المؤرخون إلا سطحياً بصورة عامة، وحصلت له فيها الصلاحية والسمة البارزة لدراسته العميقة الواعية للجوانب البناءة والمواقف الحاسمة لنوابغ التاريخ وعظمائه، فقد قدم الشيخ الندوي في كتبه ودراساته الشخصيات النابهة ورجال الفكر والدعوة والإصلاح في الإسلام في ضوء هذه الدراسة، وقد اقتبس منهم واقتفى أثرهم لنفسه واتخذ منهم نموذجاً في حياته العملية، وكل من يدرس حياة الشيخ الندوي يجد آثار هؤلاء العظماء والنوابغ متجلية في منهج عمله في كل مجال

من مجالات الدعوة والإصلاح، والتعليم والتربية، والفكر والأدب، كما توجد آثار الفكر الإسلامي واضحة في دراسته التاريخية، فقد تأثر الشيخ الندوي بجوانب ممتازة من فكر العلامة ابن تيمية والعلامة ابن القيم، ويلمس أثرهما في دراسته الفكرية.

دراسته لمناهج المصلحين والمجددين

ودرس الشيخ الندوي مناهج الإصلاح والدعوة والوسائل والطرق التي اختارها العلماء المجددون والمصلحون في تاريخ الإسلام لمواجهة الفتن والأخطار في عصورهم، فقد أخذ من الشيخ السرهندي المعروف بمجدد الألف الثاني أسلوبه المؤاسي الناصح الحكيم في مخاطبة الحكام والملوك، ومن العلامة ولي الله الدهلوي أسلوبه العلمي ومنهجه الفكري، ونجد أثر ذلك ملموساً في كتابه "الأركان الأربعة" ودرس الشيخ الندوي حركة الجهاد والإصلاح والدعوة التي كان رائدها الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد في الهند، وأبدى إعجابه وتقديره البالغ لها، كما يتجلى من دراسة كتابه "سيرة السيد أحمد الشهيد" بالأردية.

منهجه وخصائصه

فقد كان العلامة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي داعية مربياً عظيماً، وقائداً حكيماً محنكاً، كان منهجه في الدعوة والإصلاح منهج النصح والتوجيه إلى الخير، كان يراعي نفسية المخاطب وطبيعته ومشاعره، فكان ينتقد انتقاداً واضحاً عندما يرى انحرافاً وقصوراً في ناحية العقيدة ومقومات الدين، وكان يقوم بالعمل

الجرئ لتوجيه عناية الناس إلى الحفاظ على مصلحة الأمة الحقيقية، وكان يستخدم لتحقيق هذا الغرض أسلوب الخطاب العام لعامة الناس، وأسلوب اللقاء والحوار والإفهام للقادة والحكام والمسئولين الحكوميين، فكان يستخدم في منهجه الدعوي من الأساليب ما كان مناسباً لمكانة المخاطب وتكوينه العقلي مع التقدير والاعتراف لأعماله وجهوده، إنه كان ينتقد من كانوا يستحقون النقد، ولكن بأسلوب فيه حب ولطف وشفقة، فيحتملون مرارة الكلام لأسلوبه الأخوي الناصح، وقد انتقد علناً الذين قاموا بثورات عسكرية في الدول العربية، وكان إذا لم يشاهد انحرافاً خطيراً في قائد أو زعيم أو ملك في العالم العربي لم يوجه إليه خطاباً بشكل علن ولم ينتقده انتقاداً لاذعاً؛ بل كان يختار أسلوباً شفيقاً ناصحاً، ويتصل به شخصياً أو يراسله، ويلفت أنظاره إلى ما رأى إصلاحه أو إلى خطر يشعر به داخلياً أو خارجياً، فقد اختار هذا المنهج الحكيم في مخاطبة الملك فيصل، والملك فهد، وملك المغرب، والملك حسين، بينما وجه انتقادات صريحة إلى جمال عبد الناصر ومصطفى كمال أتاتورك وقادة آخرين كانت خطواتهم أو سياستهم تعارض الدين.

وكان منهجه في الدعوة والإصلاح والنصح والتوجيه مستمداً من هذه الآية الكريمة: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" [النحل: ١٢٥].

منهجه الوسط

كان معروف بفضل دراسته الواسعة العميقة للتاريخ وتاريخ

النبوة والأنبياء أن الله تعالى قد أمر نبيه موسى باختيار اللين والرفق في دعوة فرعون، كما يعرف أن الذين كانوا متمادين في الغي والضلال ومصرين على معاداة الإسلام ومحاربته، قد ورد فيهم الأمر الصريح: "قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ" [آل عمران: ١٢] فكان موقف الشيخ الندوي من الدعوة والإصلاح متزناً وجامعاً بحيث عندما كان يخاطب الخاصة من الناس يختار أسلوباً لائقاً بمستواهم ومكانتهم، وحينما يخاطب عامة الناس، يخاطبهم بصراحة مراعياً مستواهم العام، ولا يذكر إسماً معيناً من المخاطبين، بل يختار المنهج النبوي "ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا" ويوجد هذا المنهج الحكيم للدعوة والتوجيه في جهود الشيخ الندوي العلمية والدعوية بشكل ملموس.

التزكية والإحسان

وقد درس الشيخ الندوي حياة الإمام الغزالي، والشيخ عبد القادر الجيلاني، وأدرك أهمية أفكارهما وهمومهما وجهودهما الإصلاحية، وبذلك نشأت فيه عاطفة الإحسان والتزكية والإرشاد الديني، فاتصل بكبار العلماء الربانيين في عصره، واستفاد منهم واستقى من ينبوعهم وخاصة تأثر بالشيخ أحمد علي اللاهوري، والشيخ عبد القادر الرائبوري كثيراً، ونال ثقتهما وأخذ منهما الإجازة في الطريقة، ومما قوّى هذه النزعة أن جده من جهة الأم كان من كبار الزهاد والصلحاء والأتقياء في عهده، وكانت توجد في الأسرة الحسنية آثار الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ظاهرة ملموسة.

دراسته للمناهج التعليمية

كانت دراسة الشيخ الندوي دراسة عميقة واسعة لما أحرزه الغرب من تقدمات في مجال التعليم والعلم، وأدرك أن للتعليم دوراً كبيراً وأثراً عميقاً في تكوين الإنسان المتحضر، وقد أعجب إعجاباً شديداً بالفكرة التعليمية والمنهج التعليمي والتربوي لندوة العلماء التي كان رأسها والده وأخوه مدة، فدرس هذا المنهج التعليمي والفكرة التربوية السليمة وأدرك بخطورتها وأهميتها وضرورتها، وجعلها نصب عينه، ومنطلق جهوده، فأحرزت ندوة العلماء في عهد رئاسته لها تقدماً هائلاً، وتوسَّع نطاقها، وأنشئت أقسام متعددة، وشعب جديدة للتعليم والتربية والبحث العلمي وتخصصات في الفكر والدعوة والقضاء الشرعي ومعاهد متخصصة لدراسات علوم الكتاب والسنة، ومركز البحوث الإعلامية.

فإن هذه الدراسات الواعية العميقة للتاريخ والفكر والثقافة، والاستقاء من الينابيع المختلفة للدعوة والتعليم والتزكية، قد صبغت حياة الشيخ الندوي بصبغة خاصة ممتازة تلمس آثارها في مختلف جوانب حياته الفكرية والتعليمية والتربوية والدعوية، وخصائصه الروحية وسلوكه بطريقة جلية واضحة.

موقفه من إصلاح المجتمع والحكم

لقد استعرض الشيخ الندوي تاريخ المد والجزر والإقبال والانحطاط في المجتمعات الإسلامية، كما درس دراسة علمية وموضوعية للشخصيات النابغة التي قامت بعمل الإصلاح

والتجديد عبر العصور والشعوب من القرن الأول إلى عهده، وخاصة استعرض جهود ومواقف الإمام السرهندي والعلامة ولي الله الدهلوي والإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد، وأبعادها ونتائجها، وتأثير حركتهم الدعوية والتجديدية والإصلاحية على المجتمع، ومراعاتهم للطبيعة السائدة في عصورهم ومتطلباتها بأسلوب مقنع حكيم، وتأثر بهم، وشعر بأهمية وضرورة منهج الإمام السرهندي في إصلاح الأحوال والأوضاع المتردية، وآثر منهج الإمام السرهندي واختاره لمواجهة الغزو الغربي والتيارات والاتجاهات الإلحادية في عصره، ورآه لائقاً بإصلاح اتجاه الحكومة الراهنة وتوجيه الدعوة إلى القادة والحكام والملوك.

وإن الجهود التي بذلها الإمام أحمد بن عرفان الشهيد في مجال الدعوة والإصلاح والتربية الإسلامية، كانت نموذجاً عالياً لاتباع السنة، وعلو همته وعزيمته، وخاضعة للطريقة التدريجية المتبعة في عهد النبوة، وتمثل هذه الجهودُ الإصلاحية والدعوية العهد المكي و العهد المدني، إنه بدأ حركته وعمله بإصلاح رفقته وتربيتهم وتزكيتهم، وتجنَّب الشدة والانتقام، وكان يعتبر غلبة الشيعة وحكمها في منطقته خطراً للسنة، ولكن لم يصطدم معهم مباشرة، بل قام أولاً بعمل الدعوة والتربية والإصلاح والإرشاد، وآتت هذه الجهود الدعوية نتائج طيبة، وأثرت على النفوس والأذهان تأثيراً حسناً، ثم تدرّج في عمله وتقدَّم خطوة خطوة في ضوء السيرة النبوية حتى ألجأته الظروف إلى القيام بالجهاد، فقد قام بهذا الجهاد متأسياً بالسيرة

النبوية قدر مستطاعه، ولذلك هاجر من منطقته الخاضعة لغير المسلمين إلى منطقة حرة إسلامية، وجعلها منطلقاً لحركته الكفاحية ضد الكفرة، واجتنب مواجهة الحكم الإسلامي وأصحابه، وكان قد واجه قبله الإمام السرهندي فتنة الملك المغولي أكبر وأفكاره الملحدة بأسلوب حكيم وبطريقة تدريجية وشخصية، واختار الصبر والحلم والأناه والتريُّث في عمل الدعوة والإصلاح.

أسلوبه الناصح المتعاطف

فقد جعل الشيخ الندوي هذين المثالين نموذجاً لمواجهة أخطار عصره وتحدياته وحلّ مشاكله، واختار أسلوب النصح والمؤاساة والعطف والحب في التحدث مع الحكام والملوك، كان يذكر أولاً في خطبه وكتاباته ما يجده في المخاطبين من جوانب خيرة ومواقف بناءة، وصفات حسنة، ثم يلتفت إلى ما يجد فيهم من انحرافات أو اتجاهات متعارضة للإسلام، فكان من أثر هذه الطريقة الحكيمة الناصحة أنه لم يُعْتبر عملُه وحديثه معانداً أو مخالفاً للمخاطب، بل وجدت نصائحه وخطاباته وكتاباته آذاناً صاغية، وقلوباً واعية وعيوناً رامقة، فكانت خطبته مسموعة، وقوله نافذاً، ونصيحته مؤثرة، وموقفه مقبولاً.

كان منهجه في هذا المجال أنه يستعرض سياسة أصحاب الحكم، ويتصل بالحكام ورجال السلطات، ويختار أسلوباً مناسباً بصورة شخصية لا المعلنة، وينبههم على ما فيهم من مواضع ضعف أو انحراف، ويتحدث إليهم بأسلوب يشعرهم بأنه لا يستهدف وراء

ذلك مصلحة مادية، بل هو من محض النصح وطلب الخير لهم، فيعد كلامه كلام الناصح والمتعاطف المؤاسي، وينفذ في قلوبهم، ويكسب ودَّهم، ويسلك نفس هذا المسلك في التحدُّث مع قادة الحركات والجماعات الملية الإسلامية، فكان يبدى تقديره لأعمالهم وجهودهم المشكورة، ويشارك فيها حسب الفرصة، ويزودهم بالرأي والمشورة حيث يقتضي الوضع، وبأسلوب لم يكن أسلوب المخالفة والعداء والمجابهة، بل يكون أسلوبه ناصحاً متعاطفاً.

تعامله وموقفه نحو الجماعات الإسلامية

ويدل على ذلك موقِفُه نحو الجماعة الإسلامية وجماعة الإخوان المسلمين وأصحاب الدعوة والتبليغ، والمنظمات الملية والدينية الكبرى، فكان ينصح المسئولين عن هذه الجماعات ويزودهم بتوجيهات سديدة بالإضافة إلى تقديره البالغ لأعمالهم وجهودهم، وكان العمل الدعوي أهم وأكبر عملاً في نظر الشيخ الندوي من أعمال الأمة، وكان يرى الخلط مع الطريقة الرائجة للسياسة والعمل الدعوي غير الحكيم ضرراً كبيراً، ويحاول أن يكون غير منحاز إلى أحد الأطرف في الأمور الخلافية، غير أنه ينصح الأطراف ويوجهها بطريقة إيجابية، والتقى بقادة الإخوان المسلمين في مصر وأبدى تقديره لأعمالهم الدعوية ومساعيهم الإصلاحية، ومشروعاتهم البناءة، ومع ذلك نصحهم وأرشدهم إلى أن يركزوا جهودهم على نطاق العمل الدعوي فحسب، فقبلوا نصيحته ورأيه السديد، ولكن الأوضاع المتغيرة في مصر ألجأتهم إلى موقف آخر، وكان الشيخ

الندوي يرى أنه لابد من الفرق بين عمل الدعوة وعمل السياسة، وكان له معرفة واطلاع على السياسة، وكان يظهر رأيه فيها على المستوى الشخصي، ولكن يحاول أن يربأ بنفسه من المشاركة العملية في السياسة الرائجة اليوم، ويرى ذلك غير منسجم مع طبيعة الدعوة وروحها، وكان يؤكد في جهود الدعوة على القيام بالمساعي الإصلاحية باسم إصلاح المجتمع في المسلمين، ورسالة الإنسانية في المجتمعات المختلطة، وكان يساهم في هذا المجال مساهمة ملموسة.

همُّه وحُرقَتُه للأمة الإسلامية

وكان الشيخ الندوي يهمه ويقلقه ما تمر به بلاد الهند من أوضاع خطرة، وكان يدرك بفراسته جيداً ما سيتعرض له المسلمون بكونهم في الأقلية، من أخطار وتحديات، كما كان يدرك خطورة المسئولية الملقاة على المسلمين، وعظم دورهم بصفتهم خير أمة أخرجت للناس، فقد لفت الشيخ الندوي أنظار المسلمين مراراً إلى هذا الجانب المهم، وذكرهم بتقديم أمثلة من التاريخ، فقال في خطاب له:

" إننا في الهند اليوم نمر بفترة لم نشاهدها من قبل حسب ذاكرتنا، وهذا العصر يشبه عصر "الملك المغولي أكبر" إلى حدّما، غير أن عهد الملك أكبر لم يكن أخطر من هذا العهد الذي نعيش فيه، وهذا الخطر هو أن الأغلبية قد قررت أنه لا مكان للمسلمين في البلد إلا بشرط أن يكونوا متخلين عن خصائصهم الملية كلها، وأحوالهم الشخصية، ولا يرفعوا أصوات الأذان، فالمساجد مهددة بالخطر، وقد مهّد الطريق إلى ذلك ما تعرض له المسجد البابري، وقد بدأ

الآن الصحفيون والكتاب والمفكرون من الهندوس يكتبون بصراحة وهم يعلنون أن المسلمين إذا أرادوا أن يعيشوا في هذا البلد فعليهم أن يعيشوا فيه معتنقين للديانة الهندوسية، وإلا فلا مكان لهم فيه كمسلمين، لابدّ لهم أن يتخلوا عن جميع ما يتميزون به عن غيرهم في اللباس ورسم الخط، واللغة والحضارة والثقافة والمظاهر الإسلامية والشعائر الدينية.

وإن أكبر قوة تستطيع مقاومة هذه الفتنة وهذا الخطر، هم العلماء والمتخرجون في المدراس، فعليهم أن يؤكدوا في خطبهم في المساجد وفي المناسبات الإسلامية كالعيدين والجمعة ومناسبات أخرى من الأفراح والمسرات، أننا عاهدنا وقررنا أن نعيش في هذه البلاد بكل خصائصنا المليـة وحضارتنا الإسلامية وشعائرنا الدينية وأخلاقنا الاجتماعية، وبشخصيتنا الإسلامية، لا نتخلى عن شعيرة من شعائرنا، ولا نتنازل عن جزء من أجزائها، حرام علينا أن نعيش مجردين عن هذه الخصائص، وعن هذه الحضارة، وعن هذه الشخصية حتى لا نستعد أن يكون إزارنا تحت الكعب ولا نقبل أن تكون لحانا مقصرة، فضلاً عن الحلق، نتبع الشريعة اتباعاً كاملاً، ونعيش بالشريعة، وأننا نضع نظام تعليمنا، ونعلم أولادنا التوحيد، ونعلم تعاليم ديننا، ونحيي الخط الأردي، هذه المسئولية الكبرى تعود إلى العلماء، وأنتم أجدر وأخلق بأداء هذه المسئولية بجدارة وصلاحية.

اسمعوا واحفظوا وعوا أن الفتنة الكبرى اليوم والتحدي الأكبر والخطر الجسيم هو تفشّي الثقافة المختلطة والحضارة الملحدة،

والتخلي عن الشخصية المليـة، ومما يبعث على الأسف والحيرة أن بعض المثقفين والكتاب والمفكرين من المسلمين هم أيضاً يدعون المسلمين أن لا يصروا على التمسك بشيء، وإن المظاهرة والاحتجاج ضد قرار المحكمة بشأن الأحوال الشخصية هو خطأ وقع فيه المسلمون، الأمر الذي أحدث رد فعل في الهندوس وظنوا أن المسلمين ضيِّقو النظر ومتعصبون.

لا، بل نجهر بصراحة وقوة أننا قررنا أن نعيش في هذه البلاد بكافة خصائصنا وبإسلاميتنا وإسلامية أجيالنا القادمة، نرجو الله أنه سيؤتينا القيادة والسيادة في هذه البلاد بفضل الاعتصام بحبل الإسلام والعضّ على تعاليمه بالنواجذ، وذاك أن أية طبقة من طبقات هذه البلاد لا تملك طاقات أو مواهب أو خصائص تؤهلها للقيادة، وصيانة البلد من الخطر الذي يهدد كيانه، وجميع العناصر والطبقات عبدة المادة والمعدة، وعُبّاد الفتن، وعُبّاد القوة، والغلبة، والظلم، والجاه والمنصب، فلذلك نعيش بعز وشرف وكرامة نفس، وبخصائصنا، مرفوعي الرؤوس، ممدودي الأعناق، معتقدين أن كل ما نمارسه من العمل بتعاليم ديننا بحرية، هو حق وصواب، ويجيز لنا بذلك الدستور الهندي، ويكون البلد مأموناً ومصوناً وتتوفر فيه الرفاهية والرخاء والأمن والسلامة والأخوة والمحبة إذا كانت الحقوق مكفولة، والفرص متاحة لكل مواطن مهما كان انتماؤه، والحريات ممنوحة للعيش بأمن وسلامة، وللعمل بتعاليم الدين بحرية والتظاهر بالشعائر الدينية والاحتفاظ بالشخصية المليـة.

وليس يليق بنا في الوضع الراهن أن يتسرب إلينا اليأس والقنوط والاستكانة والضعف، وليكن في بالنا كل لحظة أن الإسلام لم يصل إلى هذه البلاد صدفة، بل وصل إليها بقدر الله وقضائه، أرسله إليها الله مدعوماً برحمته وتأييده ونصرته، فلن يمحى الإسلام من الهند".

خلقه مع الناس

فقد كانت شخصية الشيخ الندوي شخصية متحلية بخصائص وصفات ممتازة، حاملة لجوانب متنوعة بارزة، كان في حياته الشخصية متحلّياً بالتواضع وقمع النفس وكتمان الذات، والحمية الدينية، والصلاح والتقوى والزهد، وفي الحياة الاجتماعية كان رجلاً شفيقاً، خليقاً، متواضعاً سخياً وذا طبيعة متعاطفة، ورحيب الصدر، كريم الطبع، دمث الخلق، لين الجانب، وكان كثير التجنُّب والتحاشي عن جرح مشاعر الآخرين، وكان يكنّ في قلبه مكانة عظيمة واحتراماً كبيراً لكل من كان يساهم في بناء الأمة ونشر الدين، وكان يعترف لهم بجهودهم ويجتمع بهم ويعرب لهم عن احترامه وتقديره.

فهمه للوضع وإدراكه للخطر

وكان من خصائص الشيخ الندوي وصفاته الممتازة اتخاذ الموقف والرأي نحو قضايا الأمة ومشاكلها بعد دراسة خلفياتها وعواملها، والوصول إلى كنه الأهداف التي تتوخاها النظم القائمة في الدول العربية، وإدراك حقيقة الثورات والانقلابات التي حدثت

في العالم العربي ومحركاتها والأيدي العاملة وراءها، فقد أدرك الشيخ الندوي حقيقة الثورات التي حدثت في مصر وليبيا والعراق والشام وإيران وتفطن إلى نوايا أصحابها ومكائدها قبل بروز نتائجها، ففي البداية عارض الناس موقف الشيخ الندوي ولم يقبلوا رأيه، ولكن صدقته الأيام المقبلة، فخابت في كل مكان المحاولات الانقلابية التي قامت بالهتافات الدينية أو وعد الثوار وعوداً معسولة في البداية، ثم تغيروا، وكان الحكام في الواقع خاضعين للقوى الأجنبية خضوعاً كاملاً تابعين لها خفية وعلناً كذلك في اتخاذ السياسة والإجراءات.

سمته الغالبة: الاستغناء وقول الحق بالحكمة

كان الاهتمام بعمل الدعوة هي السمة الغالبة للشيخ الندوي، وكان منهجه في الدعوة متصفاً بالحكمة والنصح والتعقّل، وقد استمده من دراسته الموسعة للقرآن الكريم، وكان يلتقي بكبار القادة والحكام والزعماء ورجال السلطات في البلدان الأجنبية مترفعاً عن المصالح المادية، فلا يتأثر بأبهة الملوك وسطوة الحكام وغلبة رجال السلطة، وكان يحترز كل الاحتراز عن طلب المعونة المادية أو الفائدة الشخصية من أصحاب الثروة والحكام حتى قبول الهدايا منهم، كان يقول: إذا استفدنا من الملوك والحكام مالياً يفقد الكلام تأثيره ولا نتجرأ على ذكر ما فيهم من مساوئ وانحرافات أو منكرات، وإن هذا الاستغناء هو الذي جعله مقبولاً ومحترماً لدى كبار الشخصيات ذات النفوذ والتأثير، فيقولون: إنه عالم ديني ليست له مصلحة

شخصيةً، بل إنه رجل ناصح متعاطف ومؤاس، لا يهمه إلا إسداء المعروف والنصح والتوجيه والتنبيه، وإني رافقتُه في عدد من الرحلات المهمة، فشاهدته متحدثاً مع الحكام والملوك، ينصحهم نصحاً مراً في أسلوب حلو عذب، ورأيته يتكلم مع عدد من رؤساء الوزراء فوجدت المخاطبين يقولون: نعم... و... صحّ، رغم النقد اللاذع في الحديث، وحينما شاهدته أنه يتكلم مع القادة والزعماء بنصيحة مرة مع الاعتراف بصالح أعمالهم وجليل خدماتهم، فكأن يبلغهم بما يريد بأسلوب قوي وكلمات مؤثرة، وكان أسلوبه أسلوب الشفيق العطوف حتى ولو كان الكلام نقداً صريحاً، وبالتالي كان نقده وإن كان صارماً صريحاً، مقبولاً لما كان في أسلوبه من عطف ورقة وموعظة حسنة، ولذلك أمثلة كبيرة لا يسع المقام ذكرها، وإني قد لاحظت أثراً لها ملموساً.

إني قد رافقته في عدد من اللقاءات والاتصالات مع القادة والزعماء والملوك والحكام، رأيته بأم عيني متحدثاً مع الملك فيصل الشهيد ملك المملكة العربية السعودية، والملك فهد بن عبد العزيز، والملك حسن عاهل المغرب، كما شاهدته متكلماً مع عدد من رؤساء الوزراء، بعيداً عن المجاملة أو التملق، ومعترفاً لهم بأعمالهم البناءة، يتحدث معهم بأسلوب ناصح ومتعاطف مؤثر للغاية، وإن النجاح الذي أحرزه في قضية شاه بانو ونفقة المطلقة كان نتيجة هذه الاستراتيجية الحكيمة للنصح والتوجيه، وقد تحدث مع المستر راجيو غاندي رئيس الوزراء بشأن قضية المسجد البابري ولفت انتباهه إلى

حلها عاجلاً، غير أنه لا يتخذ بمفرده قراراً بشأن القضايا المليـة، بل كان يجري لقاءات واتصالات مع الزعماء والقادة المسلمين والعلماء الكبار في هذه القضايا ويتشاور معهم، ويحترم رأيهم، ولا يصر على رأيه، ويجتنب عن التصادم والصراع.

كان يتبع أسلوباً ناصحاً وعاقلاً ليعرب فيما في نفسه، وكان دائماً يراعي جانب النصح وطلب الخير للإنسانية في كل فرصة مواتية، فكان من أثر أسلوبه الناصح المتعاطف وشخصيته الإنسانية وطبيعته المتسامحة أن كان السامع إليه يعتبره محباً ومتعاطفاً للشعب والبلاد، فيستعين بهذه الشعبية وهذه المكانة الممتازة في توجيه النصائح ومخاطبة الناس.

مميزات كتاباته العلمية والفكرية والدعوية

وكانت للشيخ الندوي قدرة عالية في التحدث باللغة العربية الفصحى بجدارة ولباقة وطلاقة، ويعرض موقفه ورأيه ونصائحه بأسلوب حكيم مؤثر للغاية، فتتميز كتاباته ومؤلفاته بالدقة العلمية، وبالغوص العميق في فهم القضايا، وبالتحليل الدقيق للمشاكل، وكان أسلوبه متصفاً بالإقناع والروعة والجمال، والجمع بين العرض الموضوعي العلمي الدقيق المتين، وبين المقارنة الواسعة والحل المناسب ضمن أسلوب أدبي رصين جمع بين بلاغة القديم وسهولة الجديد، فنالت كتبه قبولاً عظيماً وطبق صيتها الخافقين، وقد أبدى القراء إعجابهم وتقديرهم لها، وأشادوا بأسلوبه العلمي الرزين وعرضه المؤثر وطريقة استدلاله، وقد عرض حركة الدعوة والجهاد

وهي إحدى كبرى الحركات الدعوية والجهادية في شبه القارة الهندية، في كتابه الشهير "سيرة سيد أحمد شهيد" بالأردية بأسلوب أدبي مؤثر، فنال كتابه هذا القبول والتقدير البالغين لدى القراء وأهل العلم والأدب والدعوة، ثم ظهر كتابه العظيم "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" بلغة عربية فصيحة بليغة، ونال القبول والانتشار الواسع في العالم العربي والإسلامي، وتلقاه أصحاب العلم والمعرفة والمثقفون في العالم العربي بقبول وإعجاب، وبيَّن القراء أهمية هذا الكتاب وقيمته العظيمة، وقدم الشيخ الندوي في هذا الكتاب نتيجة دراساته الموسعة لتاريخ ارتقاء المسلمين وسيادتهم ودورهم القيادي للعالم الإسلامي ثم انحطاطهم وتخلُّفهم إلى جانب الأسباب الحقيقية لتقدم أوربا وازدهارها، ومن كتبه الأخرى المشهورة "رجال الفكر والدعوة في الإسلام" الذي يقدم استعراضاً مؤثراً ودراسة تحليلية للجهود التجديدية والإصلاحية التي قام بها المجددون والمصلحون في التاريخ الإسلامي، وهو خير زاد للدعاة والعاملين في مجال الدعوة والإصلاح، وكذلك قدم الشيخ الندوي دراسة تحليلية نقدية مبرهنة بالدلائل للآثار السلبية التي تركتها الحضارة الغربية على حكومات الدول الإسلامية في كتابه المعروف "الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية" وإن كتاباته وخطاباته ومجموعات مقالاته وبحوثه كلها تمتاز بعذوبة ورقة، يقل مثلها في كتابات معاصريه، وتفيض مؤلفاته وكتبه عاطفة وحيوية، وحماساً وسحراً حلالاً، وهذا ما يجعل القارئ يعيش الفكرة التي يتحدث

عنها بأحاسيسه، وبفؤاده، وبعقله وفكره، وأنه يكتب بمداد الفؤاد ونور اليقين الذي ملأ أقطار قلبه، وقد نالت عدد من كتبه أهمية وقبولاً على المستوى العالمي، وكانت خطابته باللغة العربية مؤثرة للغابة، وكان يتحدث ويخطب كما كان يكتب مثل كاتب وخطيب عربي قحّ، وقد اعترف بذلك العرب أنفسهم.

سرّ شعبيته الواسعة: حب الخير والنصح

وكان الشيخ الندوي بطبيعته المتسامحة وشخصيته الجامعة وخصائصه الممتازة من التسامح والتواضع والحلم وا لمروءة واحترام رأي الآخرين ودقة الشعور ولين الجانب، مقبولاً ومحبولاً لدى الناس، وكلامهم نافذاً ومسموعاً، وقد جعلته هذه الخصائص شخصية ممتازة من بين معاصري عصره ورجاله النوابغ، فاستخدم مكانته الدينية والعلمية في التحدث إلى الحكام والملوك، ولفت انتباههم إلى ضرورة إصلاح أوضاع المسلمين، وذلك بأسلوب ملؤه الثقة، وحب الخير والنصح لهم، ولذلك كانت نصائحه مقبولة لدى الحكام، أذكر فيما يلي نموذجاً من كلامه الناصح المتعاطف، فيقول:.

"إن الحفاظ على الأمة أو تعريضها للهلاك والدمار في بلد ديمقراطي مستقلّ متقدّم، تعود مسئوليته إلى طبقة "الخواص" من أفراد الأمة، وهؤلاء الخواص هم الذين يمثلون الأمة في المجالس التشريعية والبرلمان ومجلس الشيوخ، أو يحتلون مناصب عالية ومواضع النفوذ والتأثير في الحكومة والإدارة، أو يحظون بمكانة رفيعة في السياسة والصحافة، أو يُعَدُّون في زمرة أصحاب الفكر والعلم

وأصحاب القلم، فكل فرد من أفراد هذه الطبقة يملك الثقل والقوة أكثر بالنسبة إلى عشرات الألوف أو مئات الآلاف من عامة الناس.

وهؤلاء "الخواص" هم ضمان لبقاء مستقبل الأمة محفوظاً مصوناً ولامعاً مشرفاً بتضحياتهم وجهودهم، وبخصائصهم الكريمة من الحمية الدينية، والغيرة الملية، والجرأة الخلقية، وإن هذه الجماعة القليلة العدد تقوم في أغلب الأحيان بأعمال عظيمة ومآثر جليلة لا يستطيع أن يقوم بها آلاف مؤلفة من الناس، وإذا اتفقت هذه الجماعة وتعاضدت من أجل قضية ملية، أو صيانة دين الملة وحضارتها أو ثقافتها أو الحفاظ على أحوالها الشخصية وشريعتها وقانونها أو توفير حياة العز والشرف للأمة وجعلها متمسكة بالمبادئ والمثل، لا تبالي بمصالحها الشخصية أي مبالاة، بل تنبذها وراءها ظهرياً، ولا تتردد في التنازل عن المناصب ومراكز النفوذ والتأثير في الحكومة، ولا تزلزل أقدامها الشهرة وحب الظهور ولا تقيم وزناً ولا قيمة للعضوية في البرلمان والمجالس التشريعية ورئاسة المؤسسات والوزارة والتكريمات في سبيل هذا الغرض الجليل، بل لا تعادل هذه المناصب والرئاسات جناح بعوضة في عينها، فإن القرارات والأحكام تتغير في لحظة وطرفة عين، يتحوّل المستحيل ممكناً، وتعود الأخطار الجسام كالجبال الراسيات والصخور الصماء ذرات سراب، وتتوج الأمة بكامها بإكليل العز والشرف والشوكة والغلبة والرعب والقيادة والسيادة.

ولكن بالعكس عندما تهون في عينها المصالح الملية، وتؤثر

مناصبها ومصالحها الشخصية ولا تجرأ على المخاطرة والمجازفة، أو لا تتحمل أن تكون الحكومة أو الأغلبية ساخطة فإنها تقبل خسائر جسيمة للأمة لأجل مصالحها الشخصية وأغراضها التافهة، ولا يهمُّها ولا يقلقها ما تتعرض له الأمة من انحطاط حضارى وردّة فكرية وعقدية، وتنصبّ بانكباب على إكمال أهدافها ومشاريعها وتحقيق أحلامها وتشييد قصورها، غاضّة بصرها عن جميع مصالح الأمة وقضية حياتها وموتها، ولا تخز ضميرها حادثة مهما كانت جسيمة، ولا أسواط مهما كانت قاسية، فيطبع على مصير الأمة، ويقضي الأمر، ولن يستطيع كبار علمائها المخلصين ومهرة الأطباء الناصحين علاج ما تشكو منه من آلام وأقسام".

منهجه القرآني

كان الشيخ الندوي يعتبر منهجه هذا أجدى وأنفع، وجرّب مراراً، وحصلت له تجارب أن استمع إلى نصيحته وخطبه كبار الشخصيات بغاية من الاعتناء، وأبدوا تقديرهم له، ولذلك تؤثر خطبه ونصائحه وإرشاداته أثراً ما، وكان هذا المنهج مقتبساً من هذه الآية القرآنية: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" [النحل: ١٢٥]. فتدل هذه الآية على التحدث إلى المخاطب بأسلوب ناصح وموعظة حسنة، وجاء في موضع آخر: " وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا

الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" [فصلت: ٣٣- ٣٦].

تحذيره من العنف والانفعالية الزائدة

وقد أثبتت التجارب أن العنف في التوجيه والنصح يفسد الأمر، ويحدث الصراع، فتكون الغلبة للأقوى فينتقم من معارضيه، ومما يبعث على الأسف أن المسلمين لا يزالون يتعرضون لمثل هذا الوضع ويذوقون نتائج العنف والشدة، وقد لفت الشيخ الندوي الأنظار إلى هذه النتائج الوخيمة فيقول في خطاب له:

" مرض المسلمين اليوم هي الانفعالية الزائدة، وحينما يتفشى هذا المرض في مكان بصورة اجتماعية، أو يتطور إلى طبيعة حزبية أو طبيعة إقليمية، يتسبب إلى أخطار جسيمة وخسائر فادحة، ثم تستغلها العناصر المغرضة والمفسدة، وإن بعض الأصدقاء الجهلاء أيضاً يسببون الضرر، وإن هذه الانفعالية الزائدة والتسرع والتهور والتحريض والإثارة هي التي كانت سبباً لأكثر المآسي والأزمات والنكبات والنكسات التي تعرضت لها الأمة عبر التاريخ، ثم إذا كان هذا التسرع والانفعال الزائد من قبل جماعة كبيرة أو من الجماهير فإنه يؤدي إلى نتائج وخيمة بعيدة المدى وذلة ونكسة ونكبة، وقد أشار إلى هذه الحقيقة الشاعر العربي أبو الطيب المتنبي:

وجرم جره سفهاء قوم
فحل بغير جارمه العقاب

وإن الأمم أو الجماعات والحركات التي قامت بمآثر جليلة

وأعمال ممتازة ملموسة أو أسست دولاً وحضارات في التاريخ، ورفعت علم الحق في العالم، كانت متصفة بالطبيعة المتسامحة، والحلم والأناة وضبط النفس وكظم الغيظ، والعفو والصفح، وعزة النفس، وعلو الهمة والاحتمال والصبر، ومع ذلك كانت متصفة بالشجاعة والجرأة والغيرة والحمية، وكان المسلمون في القرن الأول مثالاً لهذه الطبيعة المتسامحة المتعاطفة.

وإن "سريع الالتهاب وكثير الاشتعال" (Highly Inflamable) يمكن أن يوصف به النفط، أو المادة المتفجرة أو شحنة ناسفة، لكن لن يكون صفةَ المسلمين أن يثوروا ويشتعلوا لأمر تافه، ويمارسوا ما يشاؤون غافلين عن العواقب ولا يكون التناسب بين الفعل وردِّه، ويحولوا فيه حبة خردل إلى جبل، ويفقدوا الفرق بين الصديق والعدو، وبين الصواب والخطأ، وبين الضعيف والقوى، وبين الأطفال والشيوخ، فهذه العاطفية والانفعالية الزائدة مرض خطير يحتاج إلى معالجة فورية، ويجب على القادة والدعاة إلى الدين والمعنيين بالتعليم والتربية والعاملين للإصلاح والإرشاد أن يركزوا العناية عليه أسرع ما يمكن".

طريقته المؤسسة على الحكمة والموعظة الحسنة

فإن هذه الملاحظة لم تكن عابرة، بل توصل الشيخ الندوي إلى هذا الرأي بعد دراسة متعمقة للتاريخ، ويقدم كمثال لذلك منهج الإمام السرهندي و قد اتخذه نموذجاً له في القيام بعمل الدعوة والإصلاح، فاختار الحكمة والتعقل وحسن التدبير والحلم

والتحمل والصبر في جهوده الدعوية والإصلاحية والتربوية، ووقف حياته للعمل لصيانة المسلمين وإنقاذهم مما يشين ويهين، وبذل جهوده بإخلاص وحماس، ونظراً إلى همه الإسلامي والإنساني وشدة تأثره قال بعض الباحثين إنه كان متحمساً في عمله، وهذا الرأي غير صحيح، إنما كانت طريقته للعمل مؤسسة على الحكمة والموعظة الحسنة وإسداء المعروف وحب الخير والمؤاساة والنصح، يلفت نظرهم إلى إصلاحه، ولكن بطريقة ناصحة مؤثرة ولينة، كان يعترف لهم بأعمالهم البناءة ويلفت الانتباه إلى مساويهم وجوانب تستحق الإدانة، فلم يكونوا ينفعلون بكلامه أو نقده، بل يوضحون ويؤوّلون، يذكر النقائص والمساوئ ولكن بطريقة وجدوا فيها عاطفة النصح وحب الخير، وكان من مميزات منهجه أنه كان يؤثر ذكر النقائص في لقاءات شخصية بدل اللقاء العام، ولا ينشر في الصحف، ولا ينتقد انتقادات حادة بصورة علنية فكان الجميع يكنون له الاحترام والتقدير والانطباع الحسن عن شخصيته الفذة.

دور منهجه الحكيم الناصح في حلّ القضايا

فاستفاد الشيخ الندوي من هذه الاستراتيجية في مناسبات مختلفة، وكان لهذا المنهج الناصح الحكيم دور كبير في نزع الموافقة على المشروع المتعلق بقضية شاه بانو، وزار أتل بهاري واجبائي بعد انتخابه رئيساً للوزراء، ندوة العلماء والتقى بالشيخ الندوي فنصحه الشيخ الندوي وقال له: إنّ البلاد في خطر، فعليكم أن تتخذوا

الإجراءات لوقايتها وسلامتها، وقد لمس أثر هذه النصيحة أن قضى واجبائي في الحكم مدة رئاسته للوزراء كشبه زعيم علماني رغم كونه ممثلاً عن حزب بهارتيا جانتا.

وقد وعد بعض كبار الزعماء الهندوس باتخاذ خطوة مناسبة في قضية المسجد البابري بفضل جهود الشيخ الندوي، ولكن لم يتفق رأي الزعماء الآخرين مع ذلك، وقدمت الحكومة باقتراح الشيخ الندوي خطة يعود المسجد البابري بذلك إلى أثر تاريخي، ولكنه واجه المعارضة فلم ينجح، ثم وقع ما وقع.

إخلاصه في العمل

كان الشيخ الندوي لا يطلب أي حق أو منفعة لذاته أو لأحد من أفراد أسرته وكان ملتزماً ومتمسكاً بقراره هذا أشد تمسُّك والتزام، كما قرّر بأنه لن يشفع أو يوصى بأية منفعة ذاتية، أو عائلية إضافة إلى أنه لا يقوم بأي عمل يكون فيه تحت منة من أحد، وكان موقفه هذا قد يسبب استياء أو سخط بعض أقاربه ومعارفه أو كانوا يعتبرون هذا الموقف مبالغة وغلواً في الاحتياط، ولكن الشيخ الندوي لم يبال بذلك، وكان عضواً في مؤسستين مهمتين في المملكة العربية السعودية، وكانتا تعطيان أعضاءهما مكأفاة بالإضافة إلى مصاريف السفر، فلا يأخذ الشيخ الندوي المكأفاة ويكفي بالكراء، غير أنه كان دائم الشكر والامتنان لمن يقدم تعاوناً فيما يتصل بقضايا الأمة الإسلامية، وكان يذكره بالخير والثناء، وكان رئيس ندوة العلماء، ورئيس ندوة العلماء يخدمها مجاناً.

حاجة العصر إلى منهجه الوسط

فخلاصة القول إن شخصية الشيخ الندوي شخصية فذة جامعة تستحق أن يحتذى بها في الظروف الراهنة، وإن الأخطار والمخاوف التي أشار إليها الشيخ الندوي وأدركها في حياته، قد أصبحت فيما بعد واقعاً ملموساً، فإن منهج الشيخ الندوي صالح للعمل الإسلامي في الظروف الراهنة، ويختلف في معالجة القضايا عن الأساليب المتبعة، وهو يتسم بالاعتدال والتسامح والحكمة والتفهيم وكسب الود، وهو في الواقع منهج وسطي لا يثير ردود فعل، ولكنه أكثر تأثيراً ووقعاً.

قضايا المسلمين في الهند
ومساعي الشيخ الندوي في حلِّها[١]

السياسة الاستعمارية

لقد ورث سكان الهند من الأوضاع التي كانت فيها قبل الاستقلال، حزازات طائفية، وذلك بتأثير السياسة الاستعمارية إضافة إلى كتب التاريخ التى استكتبها الاستعمار، وأسهم في ذلك بعض المؤلفين المنطوين على حزازات طائفية، ثم بتأثير الإعلام المعادي للإسلام والمسلمين، فحدثت بسببها مشكلات وأزمات، هدّدت سلامة المسلمين وحسن صيتهم، رغم أن المسلمين مع كونهم أقلية في البلاد، كانوا ممتازين بفكرهم النيِّر، وبثقافتهم التي استفادت منها أغلبية البلاد تلقائياً، وتغيرت بها أوضاع اجتماعية وثقافية مختلفة، وتحولت من الحالة البدوية المتخلفة إلى الحالة المدنية المهذبة، وكانوا محافظين على شخصيتهم الإسلامية، وامتيازهم الثقافي فيها، لكن الحكومة الاستعمارية كانت تراهم خطراً على نفسها، لأنها انتزعت منهم الحكم في البلاد، فلم تكن تريد أن تبقى للمسلمين قوة

---

[١] قدم هذا المقال في الحفل الكريم الذي عقدته رابطة الأدب الإسلامي العالمية لتكريم رئيسها سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي ضمن أعمال مؤتمر هيئتها العامة الرابع في مدينة إستانبول بتركيا عام ١٤١٧هـ الموافق ١٩٩٦م.

أو شوكة في البلاد، فكانت تنظر إليهم نظرة قاسية غير متلائمة مع حقهم، أفادت من ذلك الأغلبية الهندوسية، وناصرها الاستعمار، وقام بالتعاون معها في نهضتها العلمية والتعليمية.

بعد الاستقلال

ولما حصل الاستقلال كان للأغلبية حق سياسى أكبر على أساس الأصوات، فاستخدمت هذا الحق في معاملتها معاملة غير متكافئة بين أبنائها وبين المسلمين، وأدى ذلك إلى بروز مشكلات بين الطرفين، منها ما كانت دينية، ومنها ما كانت تعليمية، ومنها ما كانت ثقافية، ونادى المتشدِّدون الطائفيون الهندوس – بعدما قبض أبناء دينهم الحكم في البلاد – ببخس حق الأقلية مبرِّرين ذلك بحصول المسلمين على رقعة من الأرض، وهى باكستان، فاقترحوا عليهم أن يذهبوا إليها، ويتركوا الهند للهندوس ونادوا بتهنيد البلاد تهنيداً دينياً وطائفياً خالصاً، فطالبوا بأن تهدم المساجد التى بنيت في عصر حكم المسلمين في البلاد، وأن تغير الملامح الثقافية التى وجدت منذ حكم المسلمين، وطالبوا بتقليص حجم المسلمين السياسى، مستدلين بأنهم نالوا سهمهم السياسى والوطنى بنيلهم للسلطة في باكستان، فليس لهم إذن حقّ في هذا الجزء من البلاد، وطالبوا بالحكم الدينى الهندوسى، وأن تكون الهندوسية غالبة وعالية فوق كل شىء، وسعوا أن يكون التعليم ذريعة لتهنيد الأذهان وإبعادها عن معرفة الإسلام، وأن تغلب عليها العقائد الهندوسية والثقافة الهندوسية، والتراث الهندوسي، وأن لا يبرز

فيها طابع إسلامى، وطالبوا المسلمين بأن يكونوا منقطعين إلى الوفاء للتراث الهندي، ولا يحملوا في قلوبهم حبّاً لبلاد العرب أو المسلمين وبخاصة بلاد باكستان، وأن يتركوا الاحتكام إلى الشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية والقضايا المدنية، وطالبوا بمنع الدعوة إلى الإسلام.

موقف الحكومة نحو المسلمين

هذه المطالب التى جاءت من قبل المتطرفين الهندوس، لم يوافق عليها حزب المؤتمر الوطنى الحاكم، لأنه كان قد وافق على دستور علمانى للبلاد، يسمح لأبناء الهند باختلاف طبقاتهم وأديانهم وثقافتهم أن يعملوا وفق دينهم وثقافتهم - كل في محيطه الخاص - غير متدخلين في محيط غيرهم، وكان قادة الحزب الحاكم من الهندوس والمسلمين والسيخ والنصارى جميعاً، ولكن أبناء الشعب الهندوسى بما فيهم موظفو الحكومة، وأصحاب العلم والتعليم، وغيرهم كانوا متأثرين بالدعوات الهندوسية المتطرفة، ولم تكن الحكومة المركزية تريد مخالفتهم لوحدتهم ووئامهم الدينى معهم، فكانت تتهاون في إخضاعهم للحق إذا كان هذا الحق في غير مصلحتهم الهندوسية، وكانت ترفض أهمية المسلمين إلا في الانتخابات لأن أصوات المسلمين تحمل تأثيراً بسبب عددهم الضخم في البلاد، فيتجاامل القادة ورجال الحكم مع المسلمين في زمن الانتخابات، ولكن الأغلبية، هى من الهندوس وأكثر قادة البلاد منهم، فتهاونت الحكومة في مناصرة المسلمين كل المناصرة، بل ومال

بعض أعضائها مع القوى المتطرفة، وبذلك نشأ جوّ اجتماعى وسياسى غير ملائم للمسلمين.

قيام المسلمين بمعالجة قضاياهم بأنفسهم

ولذلك كله رأى رجال الفكر الصحيح، والشعور الحى من المسلمين، أن يقوموا بمعالجة شؤونهم بأنفسهم، ولما كان المسلمون في الهند قد بدؤوا يواجهون الجفاء والضغط من قبل الاستقلال تحت حكم الإنجليز – كما ذكرنا فيما سبق – فبناء على ذلك بدؤوا جهدهم واهتمامهم بمعالجة قضاياهم المهمة من قبل الاستقلال، وكانوا قد اهتموا بصورة خاصة بجانبين اجتماعيين: أولهما بذل السعى لإنهاء الاحتلال الإنجليزي الغاشم، واستصحبوا الهندوس أيضاً في هذا الجهد الوطنى، وثانيهما جانب التعليم الإسلامى الذي أنشؤوا له المدارس الإسلامية.

دور العلماء في تحرير البلاد

أما بالنسبة لتحرير البلاد، فقد كان في مقدمة المكافحين لهذا الهدف، من المسلمين: العلماء المخلصون، لأن شعورهم ببقاء إسلامية أمتهم كان أشدّ، ولكنهم رغم تباعد ثقافتهم الإسلامية عن الثقافة الهندوسية استصحبوهم في الجهد، واستمروا على ذلك إلى ما بعد الاستقلال، ولذلك لما حدثت فجوة شديدة بين الأغلبية الهندوسية والأقلية المسلمة، استخدموا حق زمالتهم مع قادة حركة التحرير الهندوسية لتخفيف التطرف الهندوسى، واستعملوا هذا الحق في تمثيل المسلمين للحفاظ على حقوقهم الوطنية كمواطنين،

وحقوقهم الدينية حسب الدستور العلمانى ، واستمرت جهودهم من خلال جماعات وأحزاب ألّفوها لهذا الغرض ، مثل جمعية علماء الهند ، وجمعية علماء الإسلام ، والرابطة الإسلامية ، وذلك قبل الاستقلال ، وأنشأوا أحزاباً وجماعات بعد الاستقلال مثل : المجلس الاستشاري الإسلامى ، والمجلس التعليمى الدينى ، ومجلس ملت ، والمجلس الملى ، وذلك بجنب أحزاب سياسية مختلفة ، منها ما هى خاصة بالمسلمين ، ومنها ما هى مشتركة بين الطوائف ، وهى تحت الفكرة العلمانية تحت قيادة الساسة العلمانيين.

جبهات العمل الإسلامي

لقد رأى علماء الدين الإسلامى ورجال التعليم المسلمون ، أن إنقاذ أمتهم من الذلة أولاً ، ومن الانحراف الدينى ثانياً ، ومن التخاذل والفناء ثالثاً ، لا يمكن إلا إذا قاموا هم ببذل جهود مخلصة في ثلاث جبهات : جبهة تعليمية ، وجبهة المحافظة على ثقافة المسلمين وشخصيتهم الإسلامية ، وجبهة تحرير البلاد من الاستعمار ، لأنهم كانوا يواجهون بصورة خاصة خطراً كبيراً في هذه الجبهات ، وبخاصة بعد فشل ثورتهم ضد الإنجليز ، فقام الإنجليز بعمليات انتقامية ضدهم ، وأرادوا قمعهم في مختلف مجالات حياة العز والقوة ، وقام قادة المسلمين بمقاومة القمع.

الجبهة التعليمية

أما في الجبهة التعليمية فقد انقسم زعماء المسلمين إلى أقسام : قسم منهم أراد الحفاظ على علوم الدين والشريعة الإسلامية ، لأنها

كانت الهدف الأكبر للقمع الذي يمارسه الأعداء، فإذا لم يسع المسلمون ليحافظوا عليها، فلا يمكن بقاء المسلمين على دينهم ما دامت قوى العداوة نشيطة ومغرية.

دار العلوم بديوبند

فهؤلاء أسسوا مدرسة دينية إسلامية باسم دار العلوم بديوبند علي العقيدة السنية الصحيحة، معتمدة على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قام بإنشائها رجال ربانيون صالحون من المسلمين، وكان من نتيجة إخلاصهم أن نجح عملهم هذا نجاحاً كبيراً جداً، فقد قامت هذه المدرسة بتخْريج آلاف من العلماء والدعاة الذين انتشروا في الهند، وقاموا في مختلف أنحائها بأعمال الدعوة، والتعليم، والإفتاء، وإصلاح العقيدة، والتوجيهات الدينية، وفي نفس الوقت قام رجال من مسئولى هذه المدرسة بالكفاح الوطنى، كذلك لتخليص الهند من العدو المستعمر، فغضب عليهم الإنجليز، وعاملوهم بالأسر والاضطهاد.

ندوة العلماء بلكناؤ

ورافق إنشاء هذه المدرسة إنشاء مدارس متعددة من نفس الطراز، بعضها من نفس الخصائص، وبعضها الآخر بخصائص أوفق للعصر، ومن أهمها: ندوة العلماء بلكناؤ، فإذا كانت دار العلوم بديوبند قد اتخذت العلوم الإسلامية من الفقه والحديث والتفسير قاعدتَها التعليمية، جعلت ندوة العلماء قاعدتها التعليمية مواكبة العلوم الإسلامية لمقتضيات الدعوة الإسلامية، ودعت إلى الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع من المعارف وأسباب الحياة، واتبعت

هاتين المدرستين مدارس إسلامية كثيرة، وأفادت كل منها في ميدانها من الميادين، وأثرت المدرستان في الشعب المسلم الهندي تأثيراً كبيراً، وأنقذتاه من الذوبان في أوضاع الضلال والانحراف.

وكان من تأثير المدرستين أن ظهر علماء نابغون أقوياء في العمل الإسلامي وخدمة الشعب المسلم الهندي، وخرجتا شخصيات فكرية ودعوية واجتماعية قامت بمواجهة الظروف السيئة، وإخضاعها لما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين.

الشيخ أبو الحسن الندوي ومجالات عمله

وكان من هذه الشخصيات البارزة، من أبناء جامعة ندوة العلماء الفكرية والتعليمية، سماحة الأستاذ الكبير السيد سليمان الندوي رحمه الله تعالى، والعلامة الكبير عبد الباري الندوي رحمه الله في السابق، ويمثلها اليوم سماحة الشيخ أبو الحسن على الحسنى الندوي الذي يخدم الإسلام والأمة الإسلامية في مجالات عديدة من الحياة، منها مجال التربية، ومجال الأدب والعلم، ومجال الدعوة و الإصلاح، ومجال صيانة الشريعة الإسلامية من التغيير، ومجال دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، ومجال السياسة الهادفة بطرق الحوار والإقناع.

أثر عمله الدعوي ومنهجه الحكيم

ولقد أحرز سماحته انتصارات بالغة في هذه المجالات، بحكمته ورزانته وإخلاصه وزهده في الدنيا، وتأثر به أناس ذوو مكانة وأهمية في البلاد، حتى الزعماء الهندوس، وقد غير عدد منهم رأيهم المعارض للمسلمين، رغم شدة إصرارهم عليه سابقاً.

وأصبحت لكل ذلك شخصية سماحته شخصية يثق بها الأكثرية، حتى المعارضون له في الرأي، وإذا حضر حفلة أو اجتماعاً يرفعون منزلته، وقد يقدمون إليه رئاسة الحفل، وهو من علماء الشريعة الإسلامية، ومن المحافظين في الدين والربانيين من المسلمين، وشخصيته موقرة حتى بين رجال الأدب والعلم والسيُاسة المختلفين عن فكرته ورأيه كذلك.

خصائصه البارزة

لقد كانت الخصائص التى تربى عليها سماحته هى أولاً سمو النفس وصفاؤها، والرقة والرحمة في السلوك مع الناس، فقد كان والده العالم الجليل تقياً صالحاً، وكانت أمُّه من أعظم الصالحات بين أقرانها من أسرتها، فكانت تؤكد لأبنائها على السيرة الحسنة والمحافظة على الدين، وتوفي والد سماحته وهو ابن تسع سنين، فربَّته والدته على السلوك الإسلامى الممتاز، والسيرة الإنسانية الطيبة، وألزمته بأن يكون على طريق السلف الصالح، وكان والده عالماً وأديباً ومؤرخاً ومؤلفاً، وكان شقيقه الأكبر جامعاً بين الدراسات العصرية من علوم وثقافة، والدراسات الإسلامية من علوم الدين، كان حاملاً لشهادة الطب العصري والطب البلدي، وحائزاً لشهادة الدراسات العليا في العلوم الدينية، كان له بصفته الشقيق الأكبر، تأثير على تربية سماحة الشيخ ابن الحسن على الحسنى الندوي وتعليمه، فكل ذلك كان له أثر في صياغة سيرته وسلوكه وثقافته ومنهج عمله في الحياة، حتى اشتهر في الناس بفهمه للأوضاع واختياره لأفضل السبل لمعالجتها،

من توجيه وسلوك وعمل، ونال أيضاً الاحترام اللائق من أصحاب العلم والدين.

ودخل سماحته في حياة الكفاح والعمل، فأصبح عالماً وأديباً وأستاذاً في جامعة ندوة العلماء، التى كان درس فيها على منهج الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، واختار سماحته هذا المنهج في ممارسته للدعوة والتوجيه الفكري، والعمل التربوي بمعرفته للعصر، وأسباب تقدمه، والإسلام وقيمه وواجباته، فسار على هذا المنهج في تربيته لتلاميذه، بتعريفهم بالفكر المعاصر والمذاهب المعاصرة، وأراد إنشاء الشعور بالاعتزاز بالإسلام وعلومه في نفوسهم، أما في مجالات عمله فقد جمع بين مهنة التعليم في جانب، وعمل الدعوة بلسانه وقلمه في جانب آخر، فاشتهر بخطبه ومحاضراته في أنحاء البلد، حتى تجاوزت شهرته في ذلك إلى خارج الهند، وبخاصة البلدان العربية، مع اشتهاره بتأليفه وكتاباته في اللغتين الأردية لغة وطنه، والعربية لغة المسلمين الأولى، وكان قادراً مجيداً فيهما، مع معرفته للغة الإنجليزية قراءة وتحدثاً.

ثلاثة مجالات لعمله

اختار سماحته ثلاثة مجالات لعمله الاجتماعى، وهى: أولاً: تربية النفوس على الأخلاق الكريمة، وتحسين مستوى التعليم في المسلمين وتوسعته، وثانياً: نصرة القضايا الإسلامية في بلده العلمانى، وثالثاً: تقريب الفئات المبتعدة عن السيرة الصالحة، والمعادية للإسلام والمسلمين إلى فهم الإسلام، ووضع المسلمين الأصيل.

المجال الأول

ففى المجال الأول قام بتربية النفوس على الصلاح بمؤازرة التعليم بجانبيه العصري والدينى، في المعاهد والجامعات للمسلمين، منها: جامعة "على كراه – عليكرة" للعلوم العصرية، فقد كانت هذه الجامعة أخص الجامعات بالمسلمين، وكانت رفيعة المستوى، وعديدة الأقسام، وقد واجهت منذ استقلال الهند صعوبة في المحافظة على صفتها الإسلامية، بسبب الإشراف الحكومى عليها، فقام المسلمون بمكافحة الضرر الذي كان يلحق بها، فكان سماحته متعاوناً مع المدافعين عنها بتأثير شخصيته التى كان عدد من أصحاب السلطة العليا مقدرين لها، لأسباب لها أهميتها، كما رأس سماحته حركة التعليم الدينى لطلبة الصفوف الابتدائية التى هى قاعدة المراحل التعليمية كلها، ومنها ينتقل في نفوس الطلبة الأثر الذي تلقوه فيها، وأنشأت هذه الحركة آلافاً من المدارس الجانبية للتعليم الدينى، كانت تغذي الأطفال واليافعين المسلمين بالمعانى الإسلامية، التى تحفظهم من ذوبان شخصيتهم في التيار الثقافي العلمانى أو المشرك السائد في مدارس البلاد، وبتأثير هذه الحركة نجا مئات الآلاف من أطفال المسلمين من ذوبان شخصيتهم الإسلامية، كما اعتنى سماحته بنشر المنهج التعليمى الجامع بين علوم التراث الإسلامى ومواد التعليم العصري، وبخاصة المواد الاجتماعية مع المهارة في التعبير، والأخذ من الحضارة الغربية وسائل النهوض المفيدة، والاعتماد على التوفيق الإلهى والمعرفة الدينية، وتبلورت مساعيه في ندوة العلماء، فتخرج منها جيل بل جيلان من أصحاب

الكفاءة العلمية، والقدرة الأدبية، والعمل الدعوي، كما ظهرت لسماحته كتب قيمة ذات تأثير أخّاذ للنفوس.

المجال الثاني

أما في المجال الثانى، وهو نصرته للقضايا الإسلامية في بلده العلمانى، فقد قام في هذا المجال بالدفاع عن الأحوال الشخصية الإسلامية، التى كانت ولم تزل باقية محفوظة للمسلمين تحت نصوص الدستور الهندي، الذي كان يسمح لكل طائفة بالعمل في مجالها الخاص بدينها وثقافتها، ولكن أصحاب السلطة كادوا ينسون أو يتناسون حق المسلمين في هذا، فأنشأ علماء المسلمين ووجهاؤهم في الهند – وكان سماحته في مقدمتهم – مجلساً إسلامياً استشارياً عاماً للهند، جمع فيه جميع الفئات المسلمة في البلاد، فكان ذلك اتحاداً فريداً للمسلمين، فقام بجهد كبير، وذلك بالحوار والاتصالات حتى نجح في صيانة أمن المسلمين والمحافظة على صفتهم الإسلامية، وقاموا عن طريقه بالدفاع عن بعض جوانب الشريعة الإسلامية التى تصدى لإلغائها المتطرفون الهندوس، ووافقهم في ذلك قضاتهم بمحكمة النقض العليا، فتصدى لهذا الحادث الفاجع المجلس الإسلامى، وكان ترجمانه الأكبر ورئيسه هو سماحة الشيخ الندوي لدى رئيس وزراء الهند، وقد استطاع هو وزميله الأمين العام للمجلس، إقناع صاحب الحكم في البلاد بجدارة الحكم الإسلامى في معاملة الزوج المسلم مع زوجته المطلقة، فقام رئيس الوزراء بالاستجابة لطلبه بتعديل مادة ذات صلة بهذا الجانب من الأحوال الشخصية في الدستور الهندي،

حتى تصبح فسحة للمسلمين للعمل بشريعتهم، فكان ذلك نجاحاً باهراً فريداً للمسلمين، وهم أقلية مكروهة في البلاد، أمام أغلبية قاهرة معارضة للمسلمين في هذه القضية.

المجال الثالث

أما في المجال الثالث تقريب الفئات المبتعدة عن السيرة الصالحة، فدأب سماحته منذ شبابه على عمل الدعوة والإصلاح، وأضاف إليه أخيراً سعيه لإصلاح الفساد العملي في حياة المسلمين، وانحرافهم عن الحياة الإسلامية السليمة، ومنها: التبذير والطقوس الجاهلية وتقليد غير المسلمين في الأحوال الشخصية، ولقد أثر سعيه وسعى زملائه من العاملين في هذا المجال تأثيراً كبيراً، فكم من حفلات الزواج عقد المتزوجون فيها زواجهم في إشراف سماحته بدون أي تبذير وطقوس جاهلية، وكم من الناس تركوا طقوساً غير إسلامية، وأصبحوا ملتزمين بالتوجيهات الإسلامية للحياة.

أما في شأن المعادين للإسلام والمسلمين من هندوس وغيرهم، فقد قام سماحته بحركة (رسالة الإنسانية) يعقد لها اجتماعات لأبناء الطبقة المتعلمة من الطائفتين المسلمة وغير المسلمة، ويدعو فيها الحاضرين إلى إصلاح نفوسهم وسلوكهم في الحياة، وإخضاعها للأخلاق الإنسانية الرشيدة، مما لا يختلف في خيرها وصلاحها دين عن دين آخر، وهي مثل: خدمة الضعفاء والمحتاجين، والتعاون على طلب الخير للجميع، والسعي لإنقاذ الناس من الوقوع في فساد ودمار، ونشر السلام والوئام فيما بين أبناء الوطن الواحد، والمواطنين بعضهم مع بعض.

لقد عقد سماحته اجتماعات كبيرة في مدن هندية مختلفة، وساعده في ذلك تلاميذه وإخوانه ممن أحبوه وصاحبوه، وبعض ذوي الإحساس الإنسانى من الطبقة المتعلمة من غير المسلمين، وأثر ذلك على نفوس عدد لا بأس به من المتعلمين غير المسلمين، حتى بعض القضاة والحكام منهم، واعتنق عدد منهم الإسلام بعدما انشرحت صدورهم إلى فهم دعوة سماحته والدين الذي يتبعه، وقرؤوا مؤلفاته والكتب الشارحة للإسلام، ويرى سماحته أن هذه الطريقة هى الطريقة النافعة في بلد يختلط فيه المسلمون مع غير المسلمين، وهى طريقة الحوار والتعريف بالإسلام، ومعاملة الأجانب معاملة الأخوة والمحبة على الأساس الإنسانى الكريم.

ولقد استطاع سماحته بذلك وضع خطة مؤثرة ناجحة لتقريب النفوس إلى الإسلام، وإذابة مشاعر الحقد والعداوة في نفوس المعادين للإسلام، وإيناسها بالإسلام، وبذلك يكسب المسلمون في البلد الكافر صداقة أعدائهم معهم أو ذوبان عداوتهم ضدهم على الأقل.

ويرى سماحته أن الحوار البليغ المؤثر يفعل في النفوس ما لا يفعله غيره إلا نادراً، ويرى أن الاتصال بالمعارضين بالحوار الحكيم معهم يأتى بنتائج باهرة، ويرى في معاملة الحكام الجائرين أو المعادين للمسلمين أن مواجهة مخالفتهم وعداوتهم بأسلوب المعاداة يجعلهم أكثر نفوراً وابتعاداً، وقد تلجئهم المجابهة إلى اختيار سبل الظلم والقمع أكثر، فخير منهج في ذلك هو القول اللين والمعالجة الحكيمة، اتباعاً لقول الله تعالى لسيدنا موسى وأخيه هارون عليهما السلام عندما

أمرهما بمخاطبة فرعون: "فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى" [طه: ٤٤]، وقوله جل وعلا لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: "وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ" [آل عمران: ١٥٩].

ويرى أن السعى لوصول المؤمنين الصالحين إلى كراسى الحكم قد لا يجدي كثيراً، كما يجدي إيصال الإيمان والصلاح إلى المتربعين على كراسى الحكم، ويستشهد بمقولة لحاكم مسلم: "إنهم يريدون أن ينتزعوا الكرسى منى، فإنى أكسر الكرسى ولا أعطيهم".

فسماحة الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوي يقوم بحل قضايا المسلمين في الهند بهذه الطريقة، طريقة المحبة والحوار والتعبير الدعوي المؤثر، والعمل السلمى الحكيم، مع محافظة كاملة على القيم والعقائد الإسلامية العالية، وحياة صالحة تقية، فيها الزهد والقناعة لنفسه، والإخلاص وطلب الخير للجميع، وقد أحرز بمنهجه هذا حباً في قلوب الجميع كما أحرز نجاحاً في هدفه التربوي والإصلاحى و في طلبه لتغيير الأوضاع الفاسدة.

الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي

كيف تكونت شخصيته[١]

أعظم الله أجركم ـ أيها السادة المستمعون ـ في فقد هذه الشخصية الكبيرة شخصية سماحة الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوي رحمه الله تعالى، وأكرم نزله عنده، وأقدم تعزيتى بصورة خاصة إلى هذا المركز الإسلامىٰ الجليل الذي كان سماحتُه أحد مؤسسيه ورئيس مجلس أمنائه الأول، جزاه الله تعالى أكرم الجزاء على خدماته الطيبة، وأرحب بمعالى الدكتور عبد الله عمر نصيف نائب رئيس مجلس الشورى بالمملكة العربية السعودية، وهو الذي خلف شيخنا الراحل في رئاسة هذا المركز، ولقد كانت بينه وبين سماحة الشيخ رحمه الله صلات مودة وأخوة طيبة، وكان كل واحد منهما يحمل في قلبه تقديراً عظيماً للآخر، وأقدم تقديري إلى مدير هذا المركز سعادة الدكتور فرحان أحمد نظامى وزملائه على عقد هذه الندوة لذكرى سماحة الراحل العظيم رحمه الله تعالى، وبعد.

فإن حياة العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي رحمه

---

[١] قدم هذا المقال في الندوة العلمية التي عقدها مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية حول حياة وخدمات سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله تعالى بمدينة أوكسفورد في ٣/ سبتمبر ٢٠٠٠م.

الله تعالى كانت حياة نموذجية للعلماء والعاملين في مجالات العلم والتعليم والتربية الاجتماعية، فقد طلب رحمه الله العلم حتى استوعب منه ما كانت تطلبه حاجة حياته الذاتية، وما كان يفرضه عليه عصره للعمل في مجالات الحياة الاجتماعية، والعمل التربوي، وما كانت تقتضيه حاجة الفكر الإسلامى المعاصر.

بيئته العائلية

وقد ساعده في تحقيق كل ذلك عوامل مختلفة، ومنها أولاً البيئة العائلية التى ولد ونشأ فيها، فقد كانت بيئة علم وثقافة، كان جده مؤرخاً وأديباً، يدل على ذلك تأليفه لكتاب موسوعى في التاريخ في جانب، وما تركه من مجموعة شعرية ظهر فيها براعته ونبوغه في جانب آخر، ثم جاء والده فسار على نفس الدرب من البحث والتأليف في التاريخ وبتوسع وإفادة أكثر، فقد ألف في تاريخ الرجال وفي تاريخ الثقافة والعلم، وألف كتاباً قيماً في تاريخ الشعر ونقده، وهى كتب تعد من المصادر في موضوعاتها، ثم كانت أمه من النابهات في شؤون التربية والأدب، لها كتاب في تربية البنات، ولها مجموعة قصائد شعرية عبرت فيها عن آمالها في ولدها الوحيد، وابتهالات ومناجات قرضتها بأسلوب متين أخاذ النفس.

وكان أقارب سماحته في مثل هذه الخصائص، فقد كانوا موصوفين بالثقافة والعلم والآداب الرفيعة، فنشأت في سماحته ميول وأخلاق عالية، ولكن ما بلغ الشيخ تسع سنوات من عمره حتى توفي والده، وكان في مهنته طبيباً، وكانت مهنته هذه وسيلة وحيدة لكفالته

وكفالة عائلته، وكان له أخ يكبره سناً ولكنه لم يكن وصل بعد إلى درجة التفرغ للعمل فقد كان طالباً في المرحلة العالية فوقع عبء اقتصادي ثقيل على العائلة، وصبرت العائلة عليه، وأثبتت أم الشيخ رحمه الله تعالى صبراً ورزانة واهتماماً بأن يشب ولدها اليتيم على شمائل الشرف ومكارم الأخلاق وعلى الهمة والعزيمة والجد، وقامت عملياً بتربيته عليها كما يدل على ذلك رسائلها التوجيهية التى كانت ترسلها إليه من القرية التى تسكنها إلى المدينة التى كان يقيم فيها ولدها العزيز للتعليم الثانوي والعالى، ولقد ساعد الوضع القاسى الذي واجهه الشيخ رحمه الله تعالى في هذه المرحلة من صغر سنه مع يتمه وزهادة اقتصاده في نمو مؤهلاته الفطرية لمواجهة الشدة ولتنمية ملكاته البناءة من جد واحتمال ومن اعتماد على الله، ثم على نفسه، فاشتغل بالدراسة بجد واهتمام بالاستفادة مما تركه والده الجليل من تراث علمى، ومنهج عملى وخلق نبيل، وساعده في ذلك أخوه الأكبر كل المساعدة، واهتم بتنمية مؤهلاته الفردية المحدودة، وهو نشأ وتربى على والده العظيم، ومن هنا نشأت في سماحة شيخنا رحمه الله تعالى السعة في الفكر والالتزام بالقيم والحب لتوسعة معارفه العلمية فاهتم بدراسة لغته واللغة الأجنبية كذلك.

البيئة التعليمية والاجتماعية العامة

هذا بالنسبة إلى ما حصل له من بيئته العائلية، أما في بيئة أوسع من هذه البيئة وهى البيئة التعليمية والاجتماعية العامة، فقد حصلت له من طراز خاص أيضاً، كان فيها سعة النظر أكثر واعتدال الفكر

وجامعية علمية وثقافية، وذلك لما كان قد توصل إليه طائفة من العلماء في عصر قبيل ميلاده، ورجال الثقافة والعلم معهم بعد اطلاعهم على أوضاع المسلمين المختلفة، ورقى الغرب وقوته واستيلائه على الشرق إلى ضرورة إنشاء منظمة وجامعة تقومان بالجمع بين الثقافتين: الثقافة الإسلامية القديمة والثقافة المفيدة للحياة الجديدة، وبين المنهجين للتعليم والتربية: المنهج الدينى المأثور والمنهج العلمى الجديد، وهى منظمة ندوة العلماء وجامعتها دار العلوم التابعة لها، وبذلك أحدثوا بيئة علمية ثقافية جامعة بين القديم والجديد، أخذوا فيها من القديم الموروث ما يلزم وما يفتقر إليه للمحافظة على القيم الدينية الصالحة، وأخذوا من الجديد ما ينفع في تأهيل الجيل الصاعد لمسايرة الشعوب الراهنة، والمساهمة في إنجاز الأمر الذي يخرج الأمة من غفوتها السائدة، فقد رأوا الغزو العلمى والسياسى للغرب، فوجدوا أن الانفتاح العلمى لابد منه لتربية الأجيال الصاعدة، فقرروا في المنهج التعليمى ما يلزم من العلوم الاجتماعية والإنسانية ومن اللغات، وسمحوا بدراسة العلوم الطبيعية ما يزيل هذا التخلف المخزي.

وكان والد سماحته من أوائل من حملوا مسئولية إدارة منظمة ندوة العلماء وقام بتنفيذ المشروع التعليمى الجديد، وقد كان واسعاً في النظر عارفاً لمقتضيات الحياة العزيزة للمسلمين في الظروف الراهنة مع محافظة على الدين والقيم الأصيلة، وبناءاً على ذلك سمح لنجله الأكبر أخى سماحته أن يقوم بعد إتمامه لدراسة العلوم الإسلامية بأن يوسع معارفه العلمية، ويدرس الجديد منها، فتعلم اللغة الإنجليزية،

ودرس العلوم الطبيعية إلى أن نال شهادة ليسانس فيها بامتياز، ثم التحق بكلية الطب، وأتم الدراسة فيها أيضاً بامتياز.

ثم إن أمَّ سماحة الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوي، كانت متصفة بصفات ممتازة، إنها كانت أديبة شاعرة وخبيرة في تربية البنات مع الصلاح الديني والتقوى والعبادة التى كانت ممتازة فيها بين عضوات أسرتها، فنشأ سماحة الشيخ الندوي في بيئة هذا البيت وفي بيئة ندوة العلماء، فحصلت له مؤهلات متعددة وخصائص متنوعة، فشبّ على الصلاح والتقوى، وتخصَّص في أصول الدين والعلوم الإسلامية، وتعلَّم اللغة الإنكليزية، أما الشغف بالتاريخ فقد ورثه من والده العلامة وامتاز فيهما، واستعمل معرفته للغة الإنجليزية للاطلاع على تاريخ أوربا وأخلاقها، والوسائل المجدية لها في تقدُّمها واستيلائها على الشعوب المتأخرة علمياً وسياسياً، كما أن مكانة والده العلمية والدينية بين معاصريه هيَّأت لولده الشيخ أبى الحسن أسباب المعرفة لرجالات عصره وميزاتهم، واستغل الشيخ رحمه الله معرفته هذه في العلم والدين، وتتلمذ عليهم، واستفاد منهم، وبذلك أصبحت شخصيته جامعة لميزات وخصائص متنوعة.

مطالعاته وقراءاته

كانت أمه التقية، وكان أخوه الصالح يتمنيان من البداية أن تكون سيرته على مستوى سيرة السلف من صلاح وتقوى وإخلاص ومكارم الأخلاق، فأشارا عليه به، وبناءاً على ذلك زارا العلماء والصالحين من عباد الله في عهده، واكتسب منهم قسطاً كبيراً من حسن الطوية والزهد

في الدنيا، والإخلاص في العمل، والاحتساب، وإيثار خير الآخرة على خير الدنيا، والتواضع لله وحسن الخلق مع الناس، كما ساقته مطالعاته وقراءاته إلى التقدير لما قام به العلماء السلف من تجديد الفكر الإسلامي في أزمان مختلفة، ولما قام به أهل العزيمة والعمل منهم من حركات إصلاحية تربوية، وكان له مثالاً محبوباً في ذلك أحد أجداد أسرته بصورة عامة، وهو المصلح المجاهد الكبير السيد أحمد بن عرفان الشهيد الذي كان قد قام بحركة إصلاحية جبارة، وأصلح ألوفاً من الناس في شبه القارة الهندية، وقد قرأ سماحته في أوائل عمره السيرة النبوية بشوق ورغبة، وكان تأثر بها تأثراً عظيماً، ودخل ذلك الأثر في نفسه، ورسخ فيها، فكان مصداقاً لقول القائل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى
فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وإن أهم ما تأثر به سماحته في مطالعاته الأولى شعر الدكتور محمد إقبال الذي مجد بشعره السلف الصالحين الأولين لبطولاتهم وخصائص سيرتهم العملاقة، وكذلك شعر الشاعر الناقد للحضارة الغربية وفكرها الإباحي الشاعر الكبير أكبر إله آبادي، وكان رجلاً مثقفاً بالثقافة الإنكليزية، وكان شاعراً بارعاً في التعبير والتأثير، ومطالعة الشيخ رحمه الله لشعر هذين الشاعرين زادت من اعتزازه بعظمة أسلاف الإسلام وروعة سيرهم وأعمالهم، كما علم عن الحضارة الغربية ما امتازت به وفاقت في تطوير وسائل الحياة، والذي يتطلب الاستفادة من منجزاتها المادية النافعة، ولكنه علم مع ذلك ما منيت به من الخواء الروحي، وفقر

في القيم الإنسانية المشرفة، ثم إن مطالعاته في أمهات كتب الفكر الإسلامى والشريعة الإسلامية لعظماء المفكرين القدامى مثل شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وابن الجوزي، وغيرهم، ومجددي الفكر الإسلامى في الهند مثل مجدد الألف الثانى الشيخ أحمد السرهندي، ومثل الشيخ الإمام ولى الله الدهلوي، قد كوَّنت في نفس شيخنا الاعتراف بعبقرية الفكر الإسلامى وجدارته لهداية الحضارة والمدنية كذلك.

الكتب التي تمثل شخصيته الجامعة

فهذا كله نجده في مؤلفات الشيخ بتعبيره القوى وعرضه الممتع، ويمثل فكره ونظرته إلى الحياة في الجانب الأول كتاباه: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" و"الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية" ويمثل علمه ومعرفته الدقيقة للشريعة الإسلامية كتاباه "الأركان الأربعة" و"النبوة والأنبياء" ويمثل نظرته التربوية والأخلاقية كتاباه: "ربانية لا رهبانية" و"بين الإيمان والمادية" ويمثل تأثره بالشخصيات الإسلامية العملاقة من تاريخ الإسلام كتابه "رجال الفكر والدعوة في الإسلام" وكتبه في سير نخبة من الشخصيات الإسلامية الممتازة.

الشخصيات التي تأثر بها

أما الذين استفاد منهم استفادة أكبر وتخلق بخلقهم من الشخصيات الإسلامية الكبرى شخصية أسرته العملاقة السيد أحمد ابن عرفان الشهيد، وشخصية الإمام أحمد ابن حنبل، والمجدد للألف الثانى الإمام السرهندي، والإمام ولى الله الدهلوي، وقد ذكرهم في محاضراته ورسائله الإصلاحية والتوجيهية المختلفة الكثيرة، وظهر

اتباعه لمنهجهم في الدعوة والعمل في منهجه عند لقائه للحكام والولاة وإسداء النصح إليهم بكل إخلاص ومودة مع الزهد فيما في أيديهم.

الميزتان البارزتان

وقد امتاز سماحته بميزتين يصعب الاتصاف بهما على الناس، وقد زادت هاتان الميزتان في تأثير شخصيته وتحبُّبه لدى الناس، وهما أولاً الصبر على أذى الناس واحتماله بطلاقة الوجه، وعدم انتقامه من المسيء إليه، بل معاملته معه رغم ذلك بإسداء الخير ومكارم الأخلاق، والميزة الثانية هي رعاية من يساعده أو يشاركه في العمل، فكان يعامله معاملة جد كريمة، ولم يكن يجفوه بقدر المستطاع، فنادراً ما هجر مساعداً له أو أبعده عنه، وكان يجمع بين أضداد الناس، ويستفيد من كل واحد منهم من صلاحياته حتى المختلفين عنه في المنهج العلمي والاتجاه النظري، وبذلك كان يتفق عليه آراء الناس ويجتمعون حوله كما لا يجتمعون على غيره.

وبذلك ظهرت شخصية العلامة الشيخ أبي الحسن على الحسنى الندوي شخصية فذة، اعترف بها الناس في أنحاء العالم الإسلامي كله، وعدّوا وفاته خسارة عظيمة في مجال الحق، والفضيلة والخير الإنساني، وعدّوا وفاته سبباً لخلو مكانه في عدد من الجمعيات والمجامع والمراكز الثقافية والتربوية والعلمية، وظنّوا أنهم لا يجدون لمكانه فيها بديلاً يساويه ويجدي مثل جدواه، رحم الله الشيخ أبا الحسن فقيد كلمة الحق والفضيلة والخير الإنساني، وفقيد العلم والفكر والأدب النافع.

وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر[١]

انتهى العام التاسع والتسعون بعد الألف من التاريخ الميلادي، ودخلنا في العام الأخير من القرن، انتهى العام بالنسبة إلى المسلمين بأوضاع وحوادث أقضت مضاجعهم وملأت نفوسهم بألم وحزن، أما الألم فللحوادث الدامية وفظائع الظلم والاعتداء من القوى الكبرى على شعوب إسلامية ضعيفة في مختلف أنحاء العالم، أما الحزن فلِمَا خسره المسلمون من وفاة صفوة من قادة دينهم وزعماء فكرتهم الإسلامية، ومن أهمها المربى الكبير الأستاذ الجليل الشيخ عبد العزيز ابن باز، وعلامة الفقه الإسلامى الجليل الشيخ مصطفى الزرقاء، والداعية الإسلامى الجليل العلامة المربى الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوي بالإضافة إلى عدد آخر من علماء البلاد العربية، وبلاد شبه القارة الهندية، لقد حزن العالم الإسلامى كله في مختلف أقطاره وبلاده على وفاة هؤلاء الأعلام قادة الفكر والدين حزناً شديداً، وعُدّ وفاتهم خسارة إسلامية كبيرة.

كان حزن ندوة العلماء على هذه الحوادث وشعورها بخسارتها

---

[١] نشرت هذا المقال صحيفةُ "الرائد" في عددها الممتاز عن سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي بعد وفاته، السنة: ٤١، الأعداد: ١٣- ١٦، يناير وفبراير عام ٢٠٠٠م.

أشد على وفاة شيخنا ومربينا الشيخ أبى الحسن الندوي، فقد استفادت ندوة العلماء بإشرافه وتوجيهه خيراً كبيراً، وأصبحت صرحاً إسلامياً كبيراً بجهوده، وتقدَّمت تقدماً عظيماً، وكانت تتمتع بإشرافه عليها وتربيته لأبنائها، فكانت تكسب منه خيراً كثيراً فيا لها من خسارة شديدة وقعت من وفاته ويا له من حرمانها من خير كبير!.

وما كان قيس هلكه هلك واحد
ولكنه بنيان قوم تهدما

فالعين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا على فراقك يا أبا الحسن لمحزونون.

لقد كنت يا أبا الحسن محبوباً للمسلمين جميعاً، وكان الحب لك قد طبّق الآفاق، وكانت وفود المسلمين تأتى إليك وتتمتع بتوجيهاتك ومكارم أخلاقك، فخسروا بوفاتك، وحرموا خيراً كبيراً، فقد كانوا في المعضلات الكبيرة يرجون من سعيك حلاً موفقاً فتصدق إن تمثلت بيت القائل:

سيفقدني قومي إذا جد جدُّهم
وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

ولله درّ القائل:

فاذهب كما ذهبت غوادي مزنة
أثني عليها السهل والأوعار

جاءت وفاة الداعية الإسلامى والمفكر الأديب العلامة الشيخ أبى الحسن علي الحسني الندوي في آخر يوم من العام (٣١/ديسمبر

١٩٩٩م) وقد قضى غالبية هذا العام، وهى عشرة شهور منه في مرض ألمَّ به، وكان شديداً، وعولج، فشفى منه بصورة غالبة، أصبح ممرِّضوه به يؤملون عودته إلى نشاطاته التربوية والدعوية، وإلى الإثراء العلمى والفكري على مستواه السابق، وقد كان المسلمون في الهند بصورة خاصة في أشد حاجة إلى استمرار قيادته الفكرية، ومناصرته للقضايا الإسلامية الرئيسية، فقد استطاع رحمه الله حلّ مشاكل عديدة كانت تأزمت تأزماً شديداً، ورجال الحكومات الهندية يحسبون لكلمته حساباً كبيراً، وذلك لجهده ونضاله ونصيحته وإخلاصه لما فيه مصلحة المسلمين، ولنصيحته وإعانته لغير المسلمين كذلك، كان قد تبنى حركتين حركة وقاية المسلمين من انحرافات دينية واجتماعية في حياتهم، وذلك بجهود إصلاح المجتمع، وحركة أخرى هى رعاية جميع المواطنين كأبناء وطن واحد على المستوي الإنسانى النبيل، وذلك باسم رسالة الإنسانية، وكانت حركة رسالة الإنسانية التى كان بدأها لإصلاح الأخلاق الإنسانية لجميع المواطنين ذريعة إلى نشر الأخوة والسلامة الإنسانية في جماهير الناس، وكانت وسيلة لتخفيف الإحن والأحقاد التى نشأت في الهند بين طبقاتها المختلفة، وبين أبناء دياناتها المتعددة وبخاصة بين أبناء الأغلبية وبين الأقليات في البلاد بعد أن كانت الأحزاب المتطرفة أوجدتها وتوجدها باستمرار، وكانت الأحزاب تتوخى من سعيها هذا أن تسخر السلطة في البلاد لمآربها من دحر المسلمين من مجالات الحياة العزيزة، فقد كان شيخنا رحمه الله يسعى لعقد ندوات ومؤتمرات سلمية في مختلف مدن البلاد يجمع فيها

أبناء الديانات والطبقات، ويخاطبهم بخلق حسن، ويدعوهم بالتحلى بالأخلاق الإنسانية التى تتفق عليها جميع الديانات من التعاون بين أبناء وطن واحد على التضامن الوطنى والتعاون الإنسانى واختيار سبل الخير لجميع الناس ونصرة المظلوم وإسعاف البائس وإصلاح المجتمع وبنائه على ركائز الفضيلة والخير، وعندما يجتمع هؤلاء في مكان واحد ويتبادل أعيانهم الحديث الأخوى، ويسمعون من رجل خبير في الإسلام فضائل الإسلام في إطار الفضائل الإنسانية، يحصل اطلاع أهل الكفر على محاسن الإسلام وعلى تعاليمه التى هى خير تعليمات لصالح الإنسان والإنسانية، فينشأ من ذلك جوّ التعاون والمؤازرة، ولقد جرَّ ذلك إلى أن دخل عديد من غير المسلمين في الإسلام بعد أن سمعوا واطلعوا على الفضائل الإسلامية، كما أن مثل هذه الحفلات عندما عقدت في حالة التذمُّر والتشاحن الطائفى في بلد من البلدان، خففت التذمُّر، وصدت حدوث اضطرابات طائفية وهى تحدث في الهند حيناً لآخر ويكون الشطر الضعيف المظلوم فيها المسلمون، وكان منهج الشيخ رحمه الله في ذلك منهجاً مقتبساً من الأسوة النبوية الشريفة، وكان يتخذ هذا المنهج كوسيلة لنصيحة الناس بمكارم الأخلاق، وكان يستخدمه للدعوة، فقد كان رحمه الله تعالى، قد اتخذ عملى الدعوة والتربية غاية حياته، ووقف حياته عليهما، وكان يتحمّل في ذلك المشاق، مشقة ضعف الصحة ومشقة التجوّل في البلاد في عمل الدعوة، ومشقة العمل المضنى، فكسب بذلك حبّ الناس وتقديرهم كما أنه جمع لنفسه ذخيرة للأجر العظيم على خدمة الإسلام والدين.

كان رحمه الله تعالى خطيباً مؤثراً في اللغة الأردية والعربية على السواء، وكان كاتباً بليغاً، وكان باحثاً محققاً كذلك، فإن له ما يقارب من مائتى كتاب ما بين صغير وكبير، ونقلت طائفة كبيرة منها إلى اللغات العالمية العديدة منها الإنجليزية والفارسية والتركية والفرنسية والبنغالية والهندية مع اللغتين الأساسيتين له الأردية والعربية.

لقد كان رحمه الله مشاركاً في كافة الجهود الدعوية والفكرية التى تهمّ المسلمين، وكان يحضر أهم ندوات محلية ومؤتمرات فكرية ودينية إسلامية في العالمين الشرقى والغربى، ويتكلم ويكتب في العربية والأردية بطلاقة وبلاغة، وكان يحب العرب وينصحهم أيضاً ويحب المسلمين جميعاً، ويسعى لصلاحهم وخيرهم وعرفه العالم الإسلامى بخصائصه الكريمة، فأحبّه المسلمون في مختلف أقطارهم وأصقاعهم، وأحبّه كثير من أبناء شبه القارة الهندية بمختلف دياناتهم وطبقاتهم وكان موته موت العالم، وعدّ المسلمون على مختلف بلادهم وفاته خسارة كبيرة لا تُعَوَّض، وجرحاً في جسد الأمة الإسلامية يكون صعباً التئامُه، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

أما بالنسبة إلينا نحن أبناء ندوة العلماء وبخاصة أعضاء أسرته الكريمة، فالحادث شديد وكبير، فقد كان وجودُه ذريعة من ذرائع الكرامة والقوة، وأحرزت ندوة العلماء به تقدماً وأهمية أكبر، واستطاعت أن تؤدي دوراً أحسن وأعظم في مجالى التربية والدعوة، واستطاع سماحتُه من تخريج جماعة من العاملين في مجالات نصرة الحق والأمة، كان رحمه الله يشرف عليهم ويرعاهم بتوجيهاته الرشيدة.

لقد كان رحمه الله تعالى من طراز خاص من علماء الإسلام الأعلام يجمع بين اطلاع واسع ومعرفة متطلبات الظروف السائدة لمواجهة التحديات المعاصرة وبين المحافظة الشديدة على الدين والتقوى والورع والنزاهة في الحياة، وكان سلوكه مع الناس متَّسِماً بالمحبة ومكارم الأخلاق، فكان كل من يلقاه يشعر كأنه بين يدي أبيه أو عمه أو أخيه، فقد كان يتعاون معه في حلّ مشاكله، وفي نصرته في إطار قدرته المستطاعة، وكان يسعى في سبيل إعزاز الإسلام ورفع قيمة الأمة، وفي حفظها من التفرُّق والانحراف والضياع، دخل بذلك كله حبُّه في قلوب الجميع حتى أن الذين كانوا بعيدين عنه ولم يحسنوا الظنَّ به، عرفوه فأحبوه أنه بذل سعيه لصالح الأمة، ولذلك كان نبأ وفاته شديد الوطأ على نفوس المسلمين في مختلف ديارهم وأوطانهم في العالم.

رحم الله الفقيد وأنزله منازل الصديقين والشهداء والصالحين الأبرار من عباده، وجعل له أخلاف صدق، يعملون بإخلاص وكفاءة للإسلام والمسلمين وما ذلك على الله بعزيز.

فهرس المحتويات

كلمة الناشر ٥
مقدمة ٧

الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي
مكانته العلمية والدينية ومنهجه التربوي الوسيط

عالمية شخصيته وشمولها ١١
معرفته الدقيقة وتجربته الواسعة ١٢
استفادته من كبار المربين ١٣
دور أمّه الحنون في تكوين شخصيته ١٤
في تربية أخيه الأكبر ١٤
ذوقه الأدبي والقرآني ١٥
دراسته العميقة للتاريخ ١٦
دراسته لمناهج المصلحين والمجددين ١٧
منهجه وخصائصه ١٧
منهجه الوسط ١٨
التزكية والإحسان ١٩
دراسته للمناهج التعليمية ٢٠
موقفه من إصلاح المجتمع والحكم ٢٠

أسلوبه الناصح المتعاطف ٢٢
تعامله وموقفه نحو الجماعات الإسلامية ٢٣
همُّه وحرقته للأمة الإسلامية ٢٤
خلقه مع الناس ٢٧
فهمه للوضع وإدراكه للخطر ٢٧
سمته الغالبة: الاستغناء وقول الحق بالحكمة ٢٨
مميزات كتاباته العلمية والفكرية والدعوية ٣٠
سرّ شعبيته الواسعة: حب الخير والنصح للجميع ٣٢
منهجه القرآني ٣٤
تحذيره من العنف والانفعالية الزائدة ٣٥
طريقته المؤسسة على الحكمة والموعظة الحسنة ٣٦
دور منهجه الحكيم الناصح في حلّ القضايا ٣٧
إخلاصه في العمل ٣٨
حاجة العصر إلى منهجه الوسط ٣٩

قضايا المسلمين في الهند
ومساعي الشيخ الندوي في حلِّها

السياسة الاستعمارية ٤١
بعد الاستقلال ٤٢
موقف الحكومة نحو المسلمين ٤٣
قيام المسلمين بمعالجة قضاياهم بأنفسهم ٤٤
دور العلماء في تحرير البلاد ٤٤

جبهات العمل الإسلامى ٤٥
الجبهة التعليمية ٤٥
دار العلوم بديوبند ٤٦
ندوة العلماء بلكناؤ ٤٦
الشيخ أبو الحسن الندوي ومجالات عمله ٤٧
أثر عمله الدعوي ومنهجه الحكيم ٤٧
خصائصه البارزة ٤٨
ثلاثة مجالات لعمله ٤٩
المجال الأول ٥٠
المجال الثانى ٥١
المجال الثالث ٥٢

الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي
كيف تكونت شخصيته

بيئته العائلية ٥٦
البيئة التعليمية والاجتماعية العامة ٥٧
مطالعاته وقراءاته ٥٩
الكتب التى تمثل شخصيته الجامعة ٦١
الشخصيات التى تأثر بها ٦١
الميزتان البارزتان ٦٢
وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر ٦٣
فهرس المحتويات ٦٩